السنة الثالثة (شعبان سنة ١٣٥٥ هـ - أكتوبر سنة ١٩٣٦ م) العدد الثانى

صحيفة دار العلوم

م ١٩٣٤ — ع ١

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» فى جميع مدارسها

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق
السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	لغير الطلبة	٢٠ قرشا
	للطلبة ومدرسى المدارس الأولية	١٢ «
خارج القطر		٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد		٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ»

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على حسن توفيقه ، ونتوجه إليه بقلب سليم ويقين به قوى .

وبعد فإنا نقدم للقراء العدد الثانى من السنة الثالثة ، ونحن مغتبطون بما قطعت صحيفتنا من مراحل موفقة ، وبما أحرزت من نجاح يرجع الفضل فيه إلى النابهين المخلصين من أبناء دار العلوم ، الذين كانت أعداد الصحيفة ميداناً لأقلامهم ، ومرآة لصادق جهودهم وجليل مآثرهم على اللغة والأدب والتربية ؛ وإنا نرجو الله أن يشد عزمهم ويسدد خطاهم .

وإنا لنذكر فى هذا الصدد ما كان لجهود الأستاذ مهدى علام المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفنى بها من فضل فى خدمة الصحيفة ، فلقد كان من خير العاملين على تثبيت دعائمها والسمو بها ، وكان له من الآثار الظاهرة ما تجلى فى المقالات الممتعة التى أمد بها الصحيفة ، إلى جانب تلك الجهود الحافزة التى لا تظهر فى السطور ، بل فى ذلك النشاط الفياض الذى يعلمه المتصلون بتحرير الصحيفة والمشرفون على إظهارها .

وإن تحرير الصحيفة ليشكره على ما أسدى وما بذل .

اختير الأستاذ مهدى مدرساً للآداب العربية بجامعة منشستر بانجلترا ، وقد أقام له زملاؤه وأصدقاؤه حفلة توديع بنادى دار العلوم فى الثامن عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٦ ضمت طائفة من نخبة المربين ورجال المعارف ؛ ويرى القراء وصفها وما قيل فيها فى موضع آخر من هذا العدد .

ويقيننا أن الأستاذ مهدى سيكون فى رحلته من خير أعوان الصحيفة والجماعة .

٭٭٭

وإنا نسطر هذا والبلاد يعمها الابتهاج ، ويملأ جوها السرور والاغتباط ،

بعودة حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا وصحبه المخلصين، الذين جاهدوا فى الوطن حق جهاده ، وأبلوا البلاء الحسن فى خدمة مصر والدفاع عن حقوقها والاعتزاز بمكانتها .

ولسنا هنا بصدد إبداء رأى سياسى ، لأن صحيفتنا ليست سياسية ، ولكنا نرى لزاماً علينا أن نسجل هنا حقيقة يمليها علينا إيماننا الوطنى . وإخلاصنا للعاملين لخير مصر : ذلك أننا نعلم ، وجميع المخلصين لهذا الوطن الأمين يعلمون ، أن حضرة صاحب الدولة النحاس باشا يعمل حياته لخير مصر ومجد مصر ، وتثبيت دعائم استقلالها وقوميتها ؛ وجهاده الذى احتمل فيه ما احتمل إنما هو خالص لله وللوطن . وإنا نتوجه إلى الرئيس الجليل وصحبه المخلصين ، بالتهنئة على ما أحرزوه من توفيق فى خدمة مصر ، ونضرع إلى الله (سبحانه وتعالى) أن يديم على الأمة نعمة اتحادها ، و يحقق آمالها فى عصرها الجديد .

***

وإنا معشر المعلمين لنا فى العهد الجديد لمصر أكبر الآمال ، ذلك بأن نظام الحكم القومى ، وما يظفر به الشعب من حرية ، وما يحس من كرامة ، وما يتغلغل فى نفسه من أمل ، وما لزعمائه وأبطاله الظافرين من الأثر الخلق ، وما لشخصيتهم من روعة حافزة - كل أولئك له فى تكوين النشء أعظم الآثار ، وله بعمل المربين والمشرفين على التعليم ارتباط وثيق ، لأنه يفسح المجال أمامهم للتربية الاستقلالية الكاملة ، ويمكنهم من غرس الوطنية الصادقة وتثبيت دعائم القومية الصحيحة ، واتخاذ المثل العليا من أبطال الوطن وقادته رائداً وهادياً ، فيضربون خير الأمثال للشباب ، ويصلون بالوطن إلى أسمى الغايات .

وإنا نستقبل العهد الجديد لمصر واثقين من حياة جديدة كلها خير وبركة على البلاد .

وإن أبناء دار العلوم ليرقبون ، والأمل يملأ قلوبهم ، عهد العدالة والمساواة ؛ لكى يظفروا بمالهم من حقوق ظلوا ينشدونها حقبة من الزمن ، كانوا فى خلالها دائبين على العمل لخير البلاد . وإن مصر لتذكر لهم جهادهم فى خدمة اللغة العربية والدين وإنهاض الثقافة القومية .

أما دار العلوم معهدهم فلها فى مصر الأثر الجليل . فقد جاهدت فى إحياء اللغة العربية منذ فجر النهضة المصرية ، وسارت بلغة البلاد تقطع المراحل الموفقة فى وسط أعاصير من العجمة ، وعواصف من اضطراب الأساليب ، وكان لخريجى دار العلوم فضل شامل فى تقويم الألسنة ، وتهذيب الأساليب العربية ، والنهوض بطرق تدريس اللغة وآدابها . وإن المتتبعين لتاريخ الثقافة المصرية ليجدون البرهان الساطع على ما لدار العلوم من جليل الأثر .

وحسب دار العلوم أن تكون المورد العذب لطلاب اللغة والأدب ، ويكفيها فخراً أنها كانت ولا تزال القبلة التى اتجهت إليها المعاهد التى لها صلة باللغة أو الأدب أو الشريعة الإسلامية ؛ فهذه هى الجامعة المصرية القديمة ، ومدرسة القضاء الشرعى ، وكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية ، وكلية الآداب بالجامعة المصرية ؛ كل هذه المعاهد كان أبناء دار العلوم دعامتها فى العلوم العربية والشرعية وفى علوم التربية .

هذا المعهد العريق قد تطلعت إليه الأنظار واتجهت إليه المطامع . ولكنا على يقين أن مصر الخالدة لا تضحى بمعهد خالد له فى نهضتها الأدبية الأثر الخالد ، ولأبنائه من التجارب فى اللغة والأدب ومزاولة التعليم فى جميع مراحله ما ينير سبيل الإصلاح ، تلك التجارب التى هى ذخيرة الأمم فى حياتها وعمادها فى نهوضها

لقد أدت دار العلوم رسالتها كاملة ، وهى دائبة على مسايرة البلاد فى نهضتها الحديثة وإمداد الحياة التعليمية بما اكتسب أبناؤها من خبرة ومقدرة علمية ، ويقيننا أن البلاد لن تنسى لها فضلها .

وإن أبناء دار العلوم سيظلون على الوفاء لمعهدهم ، يمدونه بجهودهم ، ويرعونه بعنايتهم جزاءً بما قدم لهم وللبلاد؛ وجماعة دار العلوم دائبة على الإصلاح ، باذلة جهدها فى القيام برسالة دار العلوم .وستعمل لجنتها العلمية التى ستنتظم على أساس قويم ودعائم قوية على إحياء الآداب العربية والنهوض بالثقافة القومية ، وذلك بفضل العاملين المخلصين من أبناء دار العلوم وقوة تضامنهم وشد أزر الجماعة التى هى مبعث قوتهم ، واتجاههم إلى ناديهم الذى هو مهبط جهودهم . وإلى صحيفتهم التى هى لسانهم الناطق

والله يحقق آمالنا ويهدينا سواء السبيل ؟

وقعـــة الحرة

مناقشة لرأى أحد المستشرقين
بمناسبة نشر كتاب تاريخ الاسلام السياسى

للأستاذ عبد الوهاب النجار
ناظر مدرسة عثمان ماهر باشا

الذى أصدر هـذا الكتاب الجليل هو الأسـتاذ الفاضل صاحبنا الدكتور حسن ابراهيم أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية .

لم يكن الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم منسياً فنذكر به قراء العربية ، ولا مجهولا فنعرفهم موضعه ، ولا نكرة فنعلم به ؛ بل هو علم من أعلام مصر فيما خصص نفسه له من العلم .

ظهر هذا الكتاب فقرأته . وكلما أمعنت فى قراءته رأيت جمعاً متقناً ، واستنتاجا جيداً ، وتتبعاً للحوادث يشكر عليه القائم به ، وأخذ على مؤلفه سبل القول ، وخيل إلى أنه ضن على وعلى غيرى أن يترك لأحد منفذا ، لتفصيل مجمل ، أو إيضاح مبهم ، وكدت ألقى بالقلم من يدى لولا أنى رأيت مجازاً للقول ، لعله تركه لى عمداً ليجرنى إلى الكلام ؛ فللمؤلف الشكر أولا على مابذل من جهد فى تأليف كتابه وإتقانه ، وله الشكر ثانياً على ماترك لى من مجال للقول .

الكلام على وقعة الحرة :

لما وصل الأستاذ إلى الكلام على وقعة الحرة لم يفض الإفاضة الشافية فى أسبابها ، وما تقدمها من أمور كانت هذه الكارثة المروعة من نتائجها ؛ وما الذى ربى هذا الأمر حتى صار أمراً ، وكيف ترقت بأهل المدينة المنورة الأمور حتى حلت بها فاجعة دونها الفاجعة بعثمان بن عفان خليفة المسلمين ، بل لم تشهد المدينة مثل هذه الجائحة فى جاهلية ولا إسلام .

وقد نقل الأستاذ الدكتور عبارة لسيد أمير على الهندى ، تضمنت قول أحد المستشرقين أو المؤرخين الأوربيين : « وهكذا شاء القدر أن تنتصر الوثنية ولو مرة ضد الاسلام ، تلك الوثنية التى كان ثأرها ورد فعلها ضد الاسلام فى تلك المرة - على مايقول مؤرخ أوربى - قاسيا مؤلما » ، كما نقل عنه أيضا أن جند الشام حولوا المسجد الجامع إلى إسطبل ؛ وعلى ذلك أردت أن أسائل نفسى :

١) هل وقعة الحرة جاءت ارتجالا وعلى غير انتظار ؟

(٢) هل ساق يزيد بن معاوية جنوده على المدينة لينتقم للوثنية من الاسلام ، وليرد إلى الاسلام الدين الذى لم يزل له فى عنق الوثنية يوم بدر وما تلاه من الأيام ؟

(٣) هل كان يزيد بن معاوية له فى أعناق أهل المدينة بيعة آذنوه بخلعها ، وطردوا عامله ، فساق الجيوش ليرد القوم إلى الطاعة ، ويرتق الفتق الذى فتقوه عليه وعلى ملكه ؟

هذه أمور لابد من بيانها ، والإفاضة فى الأسباب التى كانت عصارتها وقوع هذه الكارثة الكبرى ؛ ليكون القارىء على بينة فى حكمه على من جنى هذه الحرب الفظيعة ، وأرث نارها وزادها سعيراً ، وجرع المسلمين والاسلام تلك الكأس المريرة مترعة - حكما عادلا ناضجا . وليوزع وزرها على كل من له يد سيئة فيها ، ويحمل كل واحد القسط الذى يجب أن يحمله من إثمها — وإني أسمح لنفسى بعد استئذان الدكتور أن أنوب عن حضرته فى ذلك ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، والله أسأل أن يتولانا بالتأييد والتوفيق والتسديد .

لما بويع يزيد بن معاوية بالخلافة ، وتمت بيعته ، كان عمرو بن سعيد بن العاص واليا على الحجاز مقيما بالمدينة ، وقد تعذر عليه أن يأخذ البيعة ليزيد من الحسين بن على بن أبى طالب ومن عبد الله بن الزبير ، فقد فارقا المدينة إلى مكة .

فأما الحسين فقد كان من شأنه بالكوفة مع عبيد الله بن زياد ما كان ، وتمت بسببه مأساة شنيعة من أفظع المآسى التى منى بها الاسلام .

وأما ابن الزبير فقد أقام بمكة يتربص حُئول الأحوال. وما تأتى به حوادث الدهر.
كان عمرو بن سعيد داهياً أريباً، فصار يماكر ابن الزبير الرابض بمكة ولكنه لا يهاجمه رعاية لحرمة البلد الحرام، ولقلة الجند لديه، وتسكيناً للاحوال، وسداً لباب الفتنة، ولكنه يعمد الى مكايدته، ويلتمس غرته، فلا يجده إلا متحرزاً.

طال هذا الأمر على يزيد بن معاوية، فظن بعمرو هوادة في شأن ابن الزبير، فعزله عن الحجاز، وسرح الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والياً على ما كان يليه عمرو بن سعيد.

فلما جاء الوليد بن عتبة إلى المدينة وسلم اليه عمرو عمله، عمد الوليد الى غلمان عمرو ومواليه، فحبسهم، وزج بهم في السجون، وكلمه عمرو فى إطلاقهم فأبى وقال له: لا تجزع يا عمرو. فقال له أخوه أبان بن سعيد بن العاص: أعمرو يجزع؟ والله لو قبضتم على الجمر وقبض عليه، ما تركه حتى تتركوه.

خرج عمرو بعد ذلك من المدينة، حتى إذا كان على ليلتين منها، أرسل إلى مواليه وغلمانه قائلا: إنى باعث إلى كل رجل منكم جملا وحقيبة وأداته، وتناخ لكم الإبل في السوق، فإذا أتاكم رسولى فاكسروا باب السجن، ثم ليقم كل رجل إلى جمله فليركبه، ثم أقبلوا على.

سار عمرو في طريقه إلى الشام، وأرسل من يدبر الأمر للموالى والغلمان، ففعل ماأمربه بكل إحكام وإتقان، وكسر الموالى والغلمان باب السجن، وركبوا سائرين إلى عمرو مولاهم فوافوه إلى الشام عقب وصوله إلى دمشق.

ولما قدم عمرو بن سعيد على يزيد، رحب به وأدنى مجلسه، وعاتبه فى الأشياء التى كان يأمره بها فى ابن الزبير فلا ينفذ منها إلا ما أراد — فقال: ياأمير المؤمنين يرى الشاهد ما لا يرى الغائب، وإن جل أهل مكة وأهل المدينة قد مالوا إليه، وهووه وأعطوه الرضا، ودعا بعضهم سراً وعلانية، ولم يكن معى جند أقوى بهم عليه لوناهضته، وقد كان يحذرنى ويتحرز منى، وكنت أرفق به وأداريه؛ لأستمكن منه فأثب عليه — مع أنى قد ضيقت عليه، ومنعته من أشياء كثيرة، لو تركته وإياها ما كانت له إلامعونة، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون

أحداً يدخلها حتى يكتبوا إلى باسمه ، واسم أبيه ، ومن أى بلاد الله هو ، وماجاء به ، وما يريد؟ فان كان من أصحابه . أو ممن أرى أنه يريده ، رددته صاغراً ، و إن كان ممن لا أتهم خليت سبيله .

وقد بعثت الوليد ، وسيأتيك من عمله وأثره مالعلك تعرف به فضل مبالغتى في أمرك ومناصحتى لك إن شاء الله ، والله يصنع لك ، ويكبت عدوك . فقال يزيد : أنت أصدق ممن روى هذه الأشياء عنك وحملنى بها عليك ، وأنت ممن أثق به وأرجو معونته وأدخره لرأب الصدع ، وكفاية المهم ، وكشف نوازل الأمور العظام .

فقال عمرو : ما أرى ياأمير المؤمنين أن أحداً أولى بتشديد سلطانك ، وتوهين عدوك ، والشدة على من نابذك منى .

أقام الوليد بن عتبة يريد فرصة في ابن الزبير فلا يجده إلا متحرزاً حذراً ، ودرجت الأيام على ذلك ، ولكن ابن الزبير كاد الوليد ويزيد معاً .

ذلك أنه كتب إلى يزيد بن معاوية يقول له :

إنك بعثت إلينا رجلا أخرق ، لا يتجه إلى أمر رشد ، ولا يرعوى لعظة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلا سهل الخلق ، لين الكنف ، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها ، وأن يجتمع ما تفرق ، فانظر في ذلك ، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله والسلام .

أسرع يزيد إلى الوليد فعزله ، وولى على الحجاز عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وهو فتى غر حدث غمر ، لم يجرب الأمور ، ولم تحنكه السن ، ولم تضرسه التجارب ، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله .

ولعل القارىء على ذكر مما قاله عمرو بن سعيد ليزيد ، من أن أهل مكة والمدينة قد ظهر ميلهم إلى ابن الزبير وهووه ودعوا له سراً وعلانية . فلما رأى عثمان بن محمد ذلك ، أراد أن يوفد من وجوه المدينة وأعيان خواصها وفداً إلى يزيد ، حتى إذا نالوا منه الإكرام ، وأثقل كواهلهم بالعطاء ، وأثنت عليه حقائبهم ، كان ذلك سبباً فى استلال سخائم أحقادهم ، وإماتة أضغانهم فى أنفسهم ، ثم كانوا قدوة

لمن وراءهم في مودة يزيد وإخلاص النية فى طاعته، فبعث إلى يزيد وفداً من أهل المدينة، فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى، وعبد الله بن أبى عمرو ابن حفص بن المغيرة المخزومى، والمنذر بن الزبير- ورجالا كثيراً من أشراف أهل المدينة.

قدم هذا الوفد على يزيد بن معاوية، فاكرمهم وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة - وكان شريفاً فاضلا عابداً سيدا - مائة ألف درهم، وكان معه من بنيه ثمانية، فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، وأعطى المنذر ابن الزبير مائة ألف درهم، وهكذا كان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر.

ولما جازوه خيرا بما أعطى، وفصلوا عن دمشق، رجع جميع رجال الوفد إلى المدينة إلا المنـذر بن الزبير، فإنه قدم على عبيد الله بن زياد بالعراق، وكان بالبصرة.

فلما قدم من ذكرنا إلى المدينة أظهروا شتم يزيد وعيبه، وقالوا: إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخرّاب والفتيان، وإنا نشهدكم أننا قد خلعناه وكان فيما قاله عبد الله بن حنظلة: جئتكم من عند رجل، لو لم أجد الا بنىّ هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطانى وأكرمنى وما قبلت عطاءه إلا لأتقوى به.

وأما المنذر بن الزبير فإنه أقام بالبصرة عند ابن زياد - وكان صديقا لأبيه - إلى أن علم يزيد بن معاوية بأمر الوفد، وماقالوه لأهل المدينة حين قدموا إليها، فأحفظه ذلك، وكتب إلى ابن زياد بالقبض على المنذر بن الزبير، فتذمم من ذلك لأنه ضيفه وصديق أبيه، ومكر فى صرفه إلى المدينة حتى صرفه اليها، فلما قدمها قال بمقالة أهل الوفد، وأفحش فى شتم يزيد والتنفير منه والذم له.

وإنى أستميح القارىء أن يقف معى وقفة صغيرة، فما فى وقوف ساعة من بأس، وليستعرض معى صنيع يزيد إلى الوفد، وصنيع الوفد إلى يزيد. فهل من النبل وكرامة النفس أن يمدوا أيديهم إلى يزيد يتسلمون منه العطاء وتطول ألسنتهم بالثناء عليه، والدعاء له على ما طوقهم من منة، وألبسهم من كرامة، مع

المشاشة والبشاشة ، حتى إذا ولوا مدبرين ورجعوا إلى قومهم ، التوت ألسنتهم عن مدحه إلى ذمه ، وعن الثناء عليه إلى القدح فيه ، وشتمه بأبشع ما يشتم به شخص فى ذلك الزمان ؟ — ولم يكفهم ذلك حتى طاروا فى حربه بأجنحة هو أنبت فيها ريشها ، ورموه بسهام من ماله صاغوها .

أما كان أليق بهم وبما لهم من مقام وكرامة ، أن يَعِفُّوا عما فى يده ، ويكرموا أنفسهم عن تناول عطائه ، ويصونوا ألسنتهم عن شكره وذكره بالخير ؟ حتى إذا حاربوه ، لم تحتج له أمواله التى أفاضها عليهم ، وأشاعها فى أشياعهم وذويهم .

أنا أُسلِّم أن يزيد كان على الوصف الذى وصفوا تسليما جدليا ، وأنهم رأوا ما رَوَوْا ، ولكنى أقول : إن مسألة خلع خليفة تمت له البيعة فى أعناق أهل الآفاق ، وصار فى قبضته ولايات الشام ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس . والعراقان ، ومملكة أيران ، وأرمينية ، واليمن ، والحجاز ، وجميع البلاد العربية — لابد لمن يقدم عليها أن يحسب لذلك ألف حساب وحساب . ومن سوء التقدير والغفلة عن عواقب الأعمال أن يظن ظان أن يزيد — وفى يده الأموال والرجال والعدد والعدة — يتغاضى عن عملهم وأنه لا يرجعهم إلى ملكه ، وقد رأوا عماله بالأمس لا يتحرجون من محاربة من هو أعظم منهم قدرا ، وأعز منهم فى نفس يزيد مكانة ، وأمس به رحما ، وأقربهم منه قرابة ، وهو الحسين بن على ، سبط رسول الله .

فإذا كانوا قد علموا بذلك وأرادوه ، فقد ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة ، وإذا كانوا يظنون أنهم يظفرون به على ضعفهم وقلتهم وقلة ما بأيديهم ؛ فقد كان ظنهم عجزا لا تعجزه أمة وكعاء .

و فى الحق أن القوم مخطئون فيما صنعوا ، ولا بد أن نحملهم من إثم الأعمال التى تمت على يد رجال يزيد قسطا غير قليل .

وبعد هذا — فهل كان رجال الوفد الذين أججوا المدينة نارا بعد عودتهم من عند يزيد بن معاوية ، عندهم من القوة والاستعداد ما يجعلهم قادرين على الظفر بكل جند يرسل به إليهم يزيد لردهم إلى الطاعة ودخولهم فيما دخل فيه سائر الأمة عدا ابن الزبير ومن لف لفه ؟ وهل فى أيديهم وثيقة من يزيد أنه

لا يوجه إليهم جندا ، وأنه أباح لهم الخروج على حكمه والتمرد على عماله ، والتملص من بيعته ؟

إنهم بالطبع يعلمون أن يزيد لا يمكن أن يغضى لهم عن التملص من ربقة طاعته ، وأنه جالب عليهم جنودا لا قبل لهم بها ، فالإقدام على هذا العمل لا يمكن إلا أن يكون عن نوبة ، أفلت فيها زمام التدبير من أيديهم ، وفى ساعة فارقهم فيها الرشد ، وأسلموا قيادهم للأوهام المضلة .

لست من الناصبة المغرمين بيزيد وآل يزيد ، ولا من الذين يكرهون الثور على الباطل والحامين له ، ولكنى أريد ممن يثور أن يكون عنده من الأمل فى النجاح ، مايزيد على خمسين فى المائة ، وإلا كان باحثاً عن حتفه بظلفه ، ولا غرض له إلا أن يوصف بأنه زعيم ناصر للحق يوماً أو بعض يوم . وأنه يستجيز لنفسه أن يوقع قومه فى العذاب الواصب ، فى سبيل التمتع بتلك الشهوة الضئيلة ساعة أو بعض ساعة .

مضى القوم بالمدينة على غلوائهم ، وخلعوا طاعة يزيد ، وولوا أمرهم عبدالله ابن حنظلة الغسيل .

ماذا فعل يزيد حين علم علم أهل المدينة ؟

إن أخلص المخلصين لأهل المدينة وأعدى الأعداء ليزيد ، لا يمكن أن يشير عليه بإقرار أهل المدينة على ما صنعوا ، وأن يصدق أحدوثتهم فيه ، ويبعث إليهم قائلا : لقد صدقتم فيما رميتمونى به ، فأنا سكير كبير ، أترك الصلاة للسكر ، وألعب بالكلاب والفهود ، وتعزف على القيان ، فاعملوا على مكانتكم ، ودوموا على خلافكم لى ـ لأن الرجل فى يده ملك موطد ، وفى أعناقهم له عقد مؤكد ـ وكان أحرى بهم أن يكتبوا إليه بما أنكروا ، وأن يطلبوا منه الاستقامة على الحق ليستقيموا له ، حتى إذا رفض النصح ، ولم يقم له وزنا ، كانوا على رأس أمرهم دون أن يقعوا فى ورطة لا يدرون لأثرها مدى . فإن كان لهم بتغيير المنكر يدان فعلوا ، وإلا فقد أعذروا لأنفسهم عند ربهم .

بلغ يزيد ما كان من أمر القوم ، إثر وصولهم إلى المدينة ، وما يجهرون به

من العيب له، والتوثب لخلع طاعته، فأرسل النعمان بن بشير فى نفر إلى المدينة، وقال له: إن عدد الناس بالمدينة قومك، وأنهم إن لم ينهضوا فى الفتنة لم يجترىء الناس على خلافى. وبها من عشيرتى من لا أحب أن ينهض فى هذه الفتنة فيهلك. فأقبل النعمان إلى المدينة، فأتى قومه، ودعا الناس اليه عامة، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة، وخوفهم الفتنة. وقال لهم: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام. فرد عليه عبد الله بن مطيع العدوى قائلا: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وإفساد ما صلح من أمرنا؟ فأجابه النعمان قائلا: أما والله لكأنى بك لو قد نزلت تلك التى تدعو اليها، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين ـ قد هربت على بغلتك تضرب جنبيها إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين ـ يعنى الأنصار ـ يقتلون فى سككهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم ـ فكان الأمر كما قال. وعلى الجملة فقد عصى القوم النعمان بعد أن محضهم النصح، وبالغ فيه جهده، ولم يصغوا اليه فانصرف، وكان ذلك سنة اثنتين وستين.

صار هذا الأمر يعظم حتى أظلت سنة ثلاث وستين، وفيها عمد أهل المدينة إلى خلع يزيد، ومبايعة عبد الله بن حنظلة الغسيل، وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبى سفيان والى الحجاز من المدينة، وحاصروا من كان بالمدينة من بنى أمية ومواليهم، ومن رأى رأيهم من قريش، فخرجوا حتى نزلوا بجماعتهم دار مروان ابن الحكم، فحاصرهم أهل المدينة فيها حصاراً ضعيفاً.

كان المدبر لأمر الجماعة المحصورين مروان بن الحكم، فبعث مروان وعمرو ابن عثمان رسولا إلى يزيد بكتاب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإنا قد حصرنا فى دار مروان بن الحكم ومنعنا الاستعذاب [1] ورمينا بالجبوب [2]».

---

(١) استقاء الماء العذب وفى الاصل العذاب.

(٢) بجاء مهملة فباء فواو موحدة من تحت كذا فى الطبرى ولم اجد لها معنى مناسبا ولعلها بالحبون بحاء مهملة فباء موحدة من تحت فواو فنون أى إنهم لقذارة ما يشربونه قامت لهم دماميل.

قدم الرسول على يزيد بالكتاب فقرأه، وقال:

لقد بدلوا الحلم الذى من سجيتى فبدلت قومى غلظة بليان

وأرسل إلى عمرو بن سعيد بن العاص، فأقرأه الكتاب وأمره أن يسير إلى المدينة فى جند - فلم يقبل، وقال له: قد كنت ضبطت لك البلاد، وأحكمت لك الأمور. فأما الآن إذ صارت دماء قريش تهراق بالصعيد، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك؛ يتولاهم من هو أبعد منهم منى.

وهذه زلة زلها عمرو بن سعيد، إذ لم يقبل أن يتولى قيادة الجيش؛ فإنه على كل حال أرفق من الطاغية مسلم بن عقيل، وما كان يأخذ البيعة على أبناء المهاجرين والأنصار أن يكونوا خولا ليزيد، يحكم فى أنفسهم ودمائهم وأموالهم بما شاء، كما سيأتى، ولا يستبيح أن يقتل من لم يبايع هذه البيعة الذليل فاعلها والراضى بها.

وعقب ذلك بعث يزيد الرسول بالكتاب إلى مسلم بن عقبة المرى، وهو شيخ كبير مريض، فلما دفع إليه الكتاب، قرأه وسأل الرسول عن الخبر، فأخبره بشأن بنى أمية ومن يرى رأيهم بالمدينة، فقال مقالة قالها يزيد للرسول من قبله، وهى: أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل؟ فقال الرسول: بلى يكونون، قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار! ليس هؤلاء بأهل أن ينصروا حتى يجهدوا أنفسهم فى جهاد عدوهم، وعز سلطانهم. ثم جاء إلى يزيد وقال له: ياأمير المؤمنين، لاتنصر هؤلاء، فانهم الأذلاء، أما استطاعوا أن يقاتلوا يوماً واحدا أو شطرة أو ساعة منه؟ دعهم يا أمير المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم فى جهاد عدوهم، وعز سلطانهم، ويستبين لك من يقاتل منهم على طاعتك، ويصبر عليها أو يستسلم. قال: ويحك! إنه لاخير فى العيش بعدهم. فاخرج فأنبئ نبأك، وسر بالناس. فخرج مناديه، فنادى فى الناس: أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملا، ومعونة مائة دينار توضع فى يد الرجل من ساعته، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل.

وللقارىء أن يتأمل فى هذا الجيش الخضم، الذى تأتى ليزيد أن يجمعه بمجرد الأمر بتسيير الحملة على الحجاز، ولينظر إلى عدد أهل المدينة، الذين عجزوا يوم

عثمان عن أن يتحرروا من ثمانمائة رجل وألف ، وأظهروا أنهم لاقوة لهم بهم ، فكيف يقوون على اثنى عشر ألفا شاكى السلاح ، لاهم لأحدهم إلا أن يحارب أهل المدينة ؟

عاد الرسول إلى المدينة ونزل مكانا بظاهرها ،كان على عدة الالتقاء به مع عبد الملك بن مروان فى ذلك اليوم فى ساعة اتّعداها قبل سفره ، فوجد عبدالملك فى انتظاره ، وأخبره بالذى كان ، فسر به ، وانطلقا إلى مروان ومن معه ، وأفضى إليهم الرسول بما رأى ، وأن المغيثين لايلبثون أن يطرقوا المدينة ، وقد طوى الرسول المراحل وقطع مابين المدينة ودمشق فى عشر ليال .

والذى يظهر من رواية للطبرى ، أن يزيد كان قد كتب إلى عبيد الله ابن زياد يريده على غزو ابن الزبير بمكة ، فأبى ـ ولعله لما قتل الحسين ومثل به وساءت سمعته عند الناس لم يرد أن يزيدها سوءا بغزو ابن الزبير فى الحرم .

خرج يزيد إلى الجيش الذى جهزه لغزو المدينة يتصفحه وينظر إليه ، فسمعه رسول بنى أمية قبل أن يفصل عن دمشق وهو يقول :

أبلغ أبا بكر إذا الليل سرى وهبط القوم على وادى القرى
عشرون ألفا بين كهل وفتى (١) أجمعَ سكران من القوم نرى
أم جمع يقظان نفى عنه الكرى يا عجبا من ملحد يا عجبا
مخادع فى الدين يقفو بالعرى

ولما فصل الجيش وعليه مسلم بن عقبة قال له يزيد : إن حدث بك حدث فاستخلف على الجيش الحصين بن نمير السكونى . وأوصاه قائلا : ادع القوم ثلاثا ، فان هم أجابوك وإلا فقاتلهم . فاذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا ، فما فيها من مال أورقة أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فاذا مضت الثلاث . فاكفف عن الناس وانظر على بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيرا وأدن مجلسه فانه لم يدخل فى شىء مما دخلوا فيه وقد أتانى كتابه .

---

(١) لعل عده الجيش كانت عشرين الفا باضافة خدمهم ومواليهم وان كانت عدة المحاربين اثنى عشر الفا

وكان على بن الحسين بالمدينة لما قرب الجيش ، وشدّد أهل المدينة على بنى أمية . وأخرجوهم بعد أن أحلفوا كبراءهم . ألا يظاهروا عليهم عدوا ، وألا يدلوا لهم على عورة ، وألا يقاتلوهم . كلم مروان بن الحكم ، ابن عمر ، أن يغيب أهله عنده فلم يفعل . وكلم على بن الحسين ، وقال له : يا أبا الحسن ، إن لى رحما وحرمى تكون مع حرمك فقال : أفعل . فبعث بحرمه إلى على بن الحسين فخرج بحرمه وحرم مروان حتى وضعهم بينبع ، وكان مروان شاكرا لعلى بن الحسين مع صداقة كانت بينهما قديمة ، وكان فى حرم مروان زوجه عائشة بنت عثمان بن عفان.

لما بلغ أهل المدينة فصول الجيش ميمما المدينة شددوا على بنى أمية الحصار وقالوا : والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ، ونضرب أعناقكم ، أو تعطونا عهد الله وميثاقه : لا تبغونا غائلة ، ولا تدلوا لنا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدوا ، فنكف عنكم ، ونخرجكم عنا . فأعطوهم عهدا بما طلبوا .

قبل أن نصل بالجيش إلى المدينة ، أريد أن أقف بالقارىء ساعة ، وأسائله عن الأمر الذى كان يفعله هو ، إذا كان فى موضع يزيد ، وقد ورد عليه وفد المدينة ، فأكرم وفادتهم ، وملأ أيديهم وعيابهم بالمال ، فلما عادوا ، قلبوا له ظهر المجن ، وجازوه عن الاحسان سوءا ، وطردوا واليه ، وحصروا أهله ، وخلعوه ، وقد أرسل إليهم النعمان بن بشير ، فنصح إليهم ، ولكنهم قابلوه بالاعراض .

ألم يكن حقاً له ـ وهو ملك قوى ـ أن يجهز لهم جيشا يردهم إلى الطاعة ، ويعيدهم إلى حظيرة الجماعة ؟ بلى ، له الحق كل الحق فى ذلك ، وقد أحسن بأن أمر قائد جيشه بالتربص بهم ثلاث ليال ، يدعوهم فيها إلى إيثار العافية والإقلاع عن الفرقة .

ولكن الذى آخذه عليه ، وأعده به . أنه خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، أنه أمر مسلم بن عقبة أنهم إذا أبوا إلا الحرب قاتلهم ، فاذا نصر عليهم أباح المدينة لجنده ثلاثا ، ينهبون ماعندهم من ذهب أو فضة أو طعام أو سلاح . ونحن نعلم أن الجند إذا أرخى له الحبل ، تمادى فى الطغيان وأمعن فى الظلم . ومثل هذا الأمر لم يصدر من خليفة حتى فى حروب الردة ، فهى زلة كبيرة زلها يزيد ، ولعل الذى أثارها عنده ، أنه رأى (إن بحق وإن بباطل) أن جنده متى ظفر بالقوم ، ثم رضى بالتسكين

وحقن الدماء، وعف عن الأنفس والأموال، فإن ذلك يكون مدرجة لغيرهم، وحادياً على التملص من ربقة الطاعة، فأراد أن يشرد بهم من خلفهم، ويخلع قلوب المخالفين، حتى لا يصيبهم ما أصاب أهل المدينة.

هذا ما يمكن أن أفهمه؛ وليست المسألة مسألة انتقام الوثنية من الاسلام كما يقول (سيد أمير على) بل المسألة مسألة ملك يريد صاحبه أن يرتق الفتوق، ويظهر لمن تحدثه نفسه بالثورة قوة بطشه، وفتكه بالمخالفين.

التقى مسلم بن عقبة، قائد جيش يزيد، ببنى أمية المهاجرين من المدينة، بوادى القرى، فكان أول من دعاه منهم عمرو بن عثمان بن عفان. فقال له: أخبرنى خبر ماوراءك وأشر على. فقال عمرو: لا أستطيع أن أخبرك. أخذ علينا العهود والمواثيق ألا ندل على عورة ولا نظاهر عدوا. فقال مسلم: والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك، وايم الله لا أقيلها قرشيا بعدك، فخرج بما لقى من عنده إلى أصحابه.

خشى مروان أن يلقاه فيضطره إلى الحنث فى يمينه، والنكث لعهده، أو يقتله. فقال لابنه عبد الملك: ادخل عليه قبلى لعله يجتزىء بك عنى. فدخل عليه عبدالملك فقال مسلم: هات ماعندك. أخبرنى كيف خبر الناس وكيف ترى؟ فقال: نعم؛ أرى أن تسير بمن معك فتنكب هذا الطريق إلى المدينة، حتى إذا انتهيت إلى أدنى نخل بها نزلت، فاستظل الناس فى ظله وأكلوا من صَقْرِه - حتى إذا كان الليل أذكيت الحرس الليل كله بين أهل العسكر، حتى إذ أصبحت صليت بالناس الغداة، ثم مضيت بهم. وتركت المدينة ذات اليسار، ثم أدرت بالمدينة حتى تأتيهم من ناحية الحرة مشرقاً، ثم تستقبل القوم، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت الشمس، طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم، وتقع فى وجوههم فيؤذيهم حرها، ويصيبهم أذاها، ويرون مادمتم مشرقين ائتلاق بيضكم، وحرابكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم - مالا ترونه أنتم لشىء من سلاحهم مادامو امغربين، ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم، فان الله ناصرك، إذ خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة.

فقال له مسلم: لله أبوك! أى امرىء ولد! ولما دخل عليه مروان بعد ذلك،

قال له : إيه ! فقال : أليس قد دخل عليك عبد الملك ؟ قال: بلى ، وأى رجل عبد الملك؟ قلما كلمت رجلا من قريش شبيهاً به ، فقال له : إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتنى .

قدم مسلم بجيشه إلى المدينة وعمل بما أشار به عليه عبد الملك بن مروان لم يخرم من ذلك حرفاً ، ثم دعا مسلم أهل المدينة ، فقال : « يأهل المدينة ؛ إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، يزعم أنكم الأصل . وأنى أكره هراقة دمائكم ، وإنى أوجلكم ثلاثاً فمن ارعوى وراجع الحق ، قبلنا منه ، وانصرفت عنكم ، وسرت إلى هذا الملحد الذى بمكة ، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا اليكم » ـ وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ٦٣ هـ

لما مضت الأيام الثلاثة التى هى أجل إمهالهم ولم يبق من ذى الحجة سوى ليلتين ، وكان ذلك يوم الأربعاء قال مسلم : يأهل المدينة ، قد مضت الأيام الثلاثة فما تصنعون ؟ أتسالمون أم تحاربون ؟ ـ فقالوا : بل نحارب . فقال لهم : لا تفعلوا بل ادخلوا فى الطاعة ، ونجعل حدنا وشوكتنا على الملحد هذا ، الذى قد جمع اليه المراق والفساق من كل أوب ـ فأجاب أهل المدينة قائلين : يا أعداء الله ، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ، ما تركناكم حتى نقاتلكم . نحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام ، وتخيفوا أهله ، وتلحدوا فيه ، وتستحلوا حرمته ؟ لا والله لا نفعل .

كان أهل المدينة من حين جد بهم الجد ، وعلموا أن يزيد قد اعتزم على حربهم ، قد اتخذوا خندقا فى جانب المدينة ، ونزل عليه جمع عظيم منهم ، وكان عليهم عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف ، وهو ابن عم عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى ، فى أعظم تلك الأرباع التى قسموا إليها الخندق .

قامت الحرب بين الفريقين فى ذلك اليوم على ساق وقدم ، وحصل فيها من الأهوال والإقدام وبذل النفس فى سبيل النصر ، مايكتب الفخر للفريقين ، إلى أن حقت الهزيمة فى ذلك اليوم على أهل المدينة ، وقد فنى كثير من وجهائهم وأعلامهم وشجعانهم ؛ لأن للكثرة المطلقة من أهل الشام حكما يخصها ، ولا نطيل بتفصيل ما رواه المؤرخون لأحوال القتال فى ذلك اليوم ، ولكنا نقول : إن القتال انتهى بهزيمة أهل المدينة ، بعد أن أبلوا عذرا ولم يدخروا وسعاً ، وكتبوا أسماءهم

فى سجل الشجاعة والإقدام والمفاداة، وأباح مسلم المدينة للنهب والسلب والقتل وعاث جند الشام فيها فساداً، ولكنهم لم يدخلوا المسجد بخيلهم، كما نقل المؤلف عن سيد أمير على. بعد انتهاء الموقعة جلس مسلم بن عقبة بقباء، ودعا الناس إلى بيعة يزيد، فجاء الناس أفواجا يبايعون، ولكن ناسا اشترطوا أن يبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله، وآخرين اشترطوا البيعة على أن تكون على مثل بيعة عمر؛ فكان كل من اشترط فى بيعته شرطاً أمر مسلم بقتله غير قابل إقالة ولا رجوعاً، ثم أمر أن تكون البيعة على أن يكونوا خولا ليزيد.

وفى الحق أن المبايعة على هذا الوجه لم تكن عنده من يزيد فيها وصاة، وإنما حمله عليها ما فيه من الجبرية والخلق العنيف وقد أفحش فى ذلك.

وقال ابن الأثير: ودعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء، فمن امتنع من ذلك قتله.

أقول: وهذه بدعة فى البيعة أحدثها مسلم لم يحدث مثلها فى الإسلام، فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة ـ وأما إباحة المدينة للجند ينهبون ويقتلون الأنفس فهذه جريمة كبيرة يحمل إثمها يزيد ومسلم: أما يزيد فيحمل إثم الأمر بها وأما مسلم فيحمل إثم تنفيذها، لأنه أطاع المخلوق فيما هو معصية للخالق.

أما إثم وقعة الحرة فعلى أهل المدينة الإثم؛ لأنهم بعملهم الآثم حركوا يزيد إلى توجيه الجيوش إليهم، لردهم إلى الطاعة، فلم يكونوا فى هذا العمل بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، بل هم الذين حفروا لأنفسهم حفرة ترددوا فيها، وأذلوا قومهم من بعدهم، وكانوا بلاء على الإسلام والمسلمين.

وأما يزيد فعليه إثم ما قدمنا من الأمر بإباحة المدينة للقتل(١) والنهب والسلب بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وثابت السيوف إلى أغمادها، وعلى مسلم إثم تنفيذ ذلك، وإثم اختراع البيعة بالشروط الممقوتة، التى لم يحصل مثلها فى الإسلام منذ قيامه إلى ذلك الحين.

---

(١) لم يكن القتل بأمر يزيد ولكن طبيعة الإباحة اقتضته لأن الناس لا يسهل عليهم ترك أموالهم للناهبين، والجند لا يصبرون على معارضة أحد لهم فيما أباحه لهم قائدهم.

جاء الخبر إلى يزيد بانتصار جيوشه فى وقعة الحرة ، فكان من الطبيعي أن يسر بذلك الخبر ، فتمثل بقول عبدالله بن الزبعرى ، وهو على جاهليته قبل أن يسلم فى وقعة أحد :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

ولعل التمثل بهذا البيت هو الذى دعا سيد أمير على أن ينقل عبارة أحد الأوربيين : (وهكذا شاء القدر أن تنتصر الوثنية ولو مرة ضد الإسلام) .

أقول : من الظلم الفادح ، وعدم تقدير الحوادث ، ووزنها بالميزان الصحيح ، أن يرمى يزيد بأنه فى فعله بأهل المدينة ، كان ينتقم للوثنية من الإسلام ، فإن أهل المدينة إنما حوربوا لخلعهم الطاعة بعد أن أغدق عليهم يزيد الأموال — تلك الأموال التى أفسدت طاعتهم ، وصيرتهم بعد الحصول عليها والتقوى بها قادرين على خلع طاعة من أنعم عليهم بها ، ولو كان أهل المدينة قد لزموا الطاعة أو راجعوها ، ما أصابهم شىء مما أصابهم ، ولا جرد عليهم جيش .

ولقد كانت المدينة عشرين سنة فى طاعة معاوية ، لم يهج أهلها منه هائج ، ثم فى حكم يزيد ثلاث سنين لم يصبهم منه إلا كل خير ، حتى نبذوا طاعته ، وعالنوه بالخلع ، وأفحشوا في عيبه ، فقام لردهم إلى الطاعة . وإنى لا أعيبه فيما صنع كله إلا في شيئين : أولهما اختياره لذلك الجبار ، مسلم بن عقبة المرى ، وثانيهما أمره بإباحة المدينة ثلاثة أيام لجنده ـ وأعزز ذينك الشيئين بثالث ، وهو تمثله حين بلغته وقعة الحرة بقول ابن الزبعرى المتقدم . أما فكرة الانتقام من الإسلام فإنى أبرأ إلى الله منها وممن رمى يزيد بها .

على أن الذى قتل أهله فى وقعة بدر على بن أبى طالب فقد قتل الوليدَ بن عتبة وهو خال معاوية ، وقد كان بالمدينة على بن الحسين بن على . وقد أوصى به يزيد خيرا ، وأمر أمير جنده أن يكرمه ، ويدنى مجلسه ، فلو كان الأمر انتقاماً للوثنية من الإسلام لكان يوم الحرة فرصة يأخذ فيها بثأره من وارث قاتل خال أبيه ، وهو على بن الحسين . بل الذى وقع أنه أوصى به قائده فأكرمه ، وأجلسه على سريره ، ولم يروعه . بل لم تؤخذ عليه البيعة التى تشعر بالذل ، ولم ينج منها سواه ، وسوى على ابن عبد الله بن عباس ، إذ قام أخواله بنو وليعة ومنعوه أن يبايع تلك البيعة

الذليلة ولكن يبايع بيعة على بن الحسين، ولذلك قال على بن عبد الله :

أبى العباسُ قرم بنى قصى   وأخوالى الملوك بنو وليعه
همو منعوا ذمارى يوم جاءت   كتائب مسرف وبنو اللكيعه
أرادونى التى لاعز فيها   فحالت دونهم أيد سريعه

وكان الذى قام فى شأنه الحصين بن نمر السكونى، إذ قال: لا يبايع ابن أختنا إلا كبيعة على بن الحسين.

ولأدل القارىء على إسراف مسلم فى القتل، وأنه كان يقتل ذا الذنب، ومن لاذنب له ـ أنقل له بعض ما ذكره الطبرى وتبعه فيه ابن الأثير من الحوادث الجائرة الظالم فاعلها (قال هشام) : حدثنى عوانة قال: دعا الناس مسلم بن عقبة بقباء إلى البيعة، وطلب الأمان لرجلين من قريش: ليزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى؛ ومحمد بن أبى الجهم ابن حذيفة العدوى القرشيين، ولمعقل بن سنان الأشجعي، فأتى بهم بعد الوقعة بيوم. فقال: بايعوا. فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه. فقال: لا والله لا أقيلكم هذا أبدا، فقدمهما فضرب أعناقهما. فقال مروان: سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت اعناقهما؟ فنخس بالقضيب خاصرته. وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأت السماء إلا برقه ـ وقال ابن الأثير: وأمر بمروان فوجئت أنفه.

وأما معقل بن سنان الأشجعي فقال له مسلم: مرحبا بأبى محمد، أراك عطشان. فقال: أجل، فقال: شوبوا له عسلا بالثلج الذى حملتموه معنا ـ وكان له صديقاً قبل ذلك، فشابوه له، فلما شرب معقل. قال له: سقاك الله من شراب الجنة، فقال له مسلم: أما والله لا تشرب بعدها شرابا أبدا، حتى تشرب من شراب الحميم. قال: أنشدك الله والرحم، فقال مسلم: أنت الذى لقيتنى بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد فقلت: سرنا شهرا، ورجعنا من عند يزيد صفرا، نرجع فنخلع هذا الفاسق ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين. فيم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة؟ إنى آليت بيمين لا ألقاك فى حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت ثم أمر به فقتل.

وأما لقاء على بن الحسين له فقد قال الطبرى: وأقبل على بن الحسين بين

مروان وعبد الملك ، يلتمس بهما عند مسلم الأمان ، فجاء حتى جلس عنده بينهما ؛ فدعا مروان بشراب ليتحرم بذلك من مسلم، فأتى له بشراب فشرب منه مروان شيئاً يسيراً ، ثم ناوله عليا ، فلما وقع فى يده قال له مسلم : لا تشرب من شرابنا . فارعدت كفه ولم يأمنه على نفسه ، وأمسك القدح بكفه لا يشربه ولا يضعه . فقال : إنك إنما جئت بين هؤلاء لتأمن على نفسك عندى ، والله لو كان هذا الأمر إليهما لقتلتك ولكن أمير المؤمنين أوصانى بك ، وأخبرنى أنك كاتبته، فذلك نافعك عندى . فإن شئت فاشرب شرابك الذى فى يدك ، وإن شئت دعونا بغيره ، فقال: هذه التى فى كفى أريد ـ وفى رواية أخرى ، أنه لما قدم عليه قال : مرحباً وأهلا ، ثم أجلسه معه على السرير والطنفسة ، ثم قال : إن أمير المؤمنين أوصانى بك قبلا وهو يقول : إن هؤلاء الخبثاء شغلونى عنك وعن وصلتك . ثم قال لعلى : لعل أهلك فزعوا . قال : إى والله ، فأمر بدابته فأسرجت ، ثم حمله فرد عليها .

بعد ذكر هذه الوقعة — أكرر القول :

لا يسعنى إلا الأسف على أن أهل المدينة تبعوا أهواءهم ، ولم يتحاكموا إلى الروية والعقل ، ولم يوازنوا بين ما يستطيعون وما يستطيع يزيد . فحفروا لأنفسهم قبورهم بأيديهم ، ولكل أمة أجل ، وأما يزيد فيحمل إثم وصاته بإباحة المدينة ثلاثة أيام ، وأما مسلم فيحمل إثم تنفيذ وصية يزيد ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، كما يحمل إثم من قتلهم بعد الموقعة ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وسيقدم كل من الظالم والمظلوم على ربه ، فيجازيه بما يعلم أنه يستحقه .

القول فى يزيد بن معاوية

لهج كثير من المسلمين بتنقص يزيد بن معاوية ولعنه دون حرج ، وحجتهم في ذلك أمران :

أولهما — قتل الحسين بيد جنده .

ثانيهما — وقعة الحرة .

هذا حجة اللاعنين ، وأما المتحرجون فيقولون : إن قتل الحسين لم يكن بأمره

وإنما الذى باشر ذلك مباشرة أقرب ، عمر بن سعد بن أبى وقاص ، أمير جيش عبيدالله بن زياد ، والذى باشره مباشرة قريبة ، وأمربه ، ولم يرض بما دون قتله أو إعطائه بيده ، كما يفعل المستأسر الذليل - هو عبيد الله بن زياد ، ولم يكن عنده من يزيد إلا أن يزيد علم بمسير الحسين إلى الكوفة فحذره فقط ، فلم يكن آمراً بقتله ولا راضياً به ، ويستندون إلى ما ذكره ثقاة المؤرخين ، من أنه حين جاءه رأس الحسين أمر بإدخال حرمه إلى داره ، وأمر زوجته أن تحد على الحسين ، وأقيم المأتم فى داره بدمشق ، وأكرم علياً زين العابدين ، وجعله كولده . وعوض على آل الحسين أكثر مما ضاع منهن ، وأمر علياً أن يكاتبه فى كل شأن يهمه .

ولقد بالغ الإمام أبو بكر بن العربى فى هذا الشأن حتى قال : إن الحسين قتل بسيف جده ، لأنه خرج عن طاعة إمام قائم . وابن خلدون يرد على أبى بكر بن العربى قائلا : إن الخروج من طاعة الإمام لا حرج فيه إذا كان فاسقاً كيزيد ، وإنما الحرج فى الخروج على الإمام العادل .

وقد صدر فتويان من عالمى طوس الكيا الهراسى ، وحجة الإسلام الغزالى ، فالأول يقول بجواز لعنه . والثانى يقول : إن ذلك حرام لا يجوز .

جاء فى صحيفة ١٢٠ جزء ثالث من إحياء العلوم للغزالى مانصه :

« فإن قيل : فهل يجوز أن يقال : قاتل الحسين لعنه الله . أو الآمر بقتله لعنه الله . قلنا : الصواب أن يقال : قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشياً قاتل حمزة عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قتله وهو كافر . ثم تاب عن الكفر والقتل جميعاً . ولا يجوز أن يلعن . والقتل كبيرة ولا تنتهى إلى رتبة الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر . وليس في السكوت خطر وهو أولى . وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغى أن يطاق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين اه » .

وجاء فى صفحة ٤١٢ من تاريخ ابن خلكان : « وسئل الكيا أيضا عن يزيد بن معاوية فقال : إنه لم يكن من الصحابة ؛ لأنه ولد في أيام عمر بن الخطاب .

(رضى الله عنه) وأما قول السلف فى لعنه ففيه لأحمد قولان: تلويح وتصريح ، و لمالك قولان: تلويح وتصريح ، ولأبى حنيفة قولان: تلويح وتصريح ، ولنا قول واحد: التصريح دون التلويح .

« وكيف لا يكون كذلك وهو اللاعب بالنرد ، والمتصيد بالفهود ، ومد من الخمر ، وشعره فى الخمر معلوم . ومنه قوله:

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم وداعى صبابات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكلٌ وأن طال المدى يتصرم
ولا تتركوا يوم السرور إلى غد فرب غد يأتى بما ليس يعلم

وكتب فصلا طويلا ثم قلب الورقة وكتب: « لو مُدِدت ببياض لمددت العنان فى مخازى هذا الرجل ، وكتب فلان بن فلان . وقد أفتى الامام أبو حامد الغزالى (رحمه الله) تعالى فى مثل هذه المسألة بخلاف ذلك ، فإنه سئل عمن صرح بلعن يزيد: هل يحكم بفسقه ، أم هل يكون ذلك مرخصا له ؟ وهل كان مريداً قتل الحسين (رضى الله عنه)، أم كان قصده الدفع ؟ وهل يسوغ الترحم عليه ، أم السكوت عنه أفضل ؟ تنعّمْ بازالة الاشتباه مُثابا ! فأجاب: لا يجوز لعن المسلم أصلا ، ومن لعن مسلماً فهو الملعون ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المسلم ليس بلعان . وكيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم ؟ وقد ورد النهى عن ذلك ، وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبى (صلى الله عليه وسلم) . ويزيد صح أسلامه . وما صح قتله الحسين رضى الله عنه ، ولا أمره به ولا رضاه . وإذ لم يصح ذلك منه لا يجوز أن يظن ذلك به . فإن إساءة الظن بالمسلم أيضا حرام ، وقد قال الله تعالى: « اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن اثم » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم: « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء »

« ومن زعم أن يزيد أمر بقتل الحسين (رضى الله عنه) أو رضى به ، فينبغى أن يعلم به غاية الحماقة . فان من قتل من الأكابر والوزراء والسلاطين فى عصره ، لو أراد أن يعلم حقيقة من الذى أمر بقتله ، ومن الذى رضى به ، ومن الذى كرهه ، لم يقدر على ذلك ، وإن كان الذى قد قتل فى جواره وزمانه وهو يشاهده ، فكيف لو كان

فى بلد بعيد وزمن قديم قد انقضى ؛ فكيف يعلم ذلك فيما انقضى عليه قريب من أربعمائة سنة فى مكان بعيد؟ وقد تطرق التعصب فى الواقعة فكثرت فيها الأحاديث من الجوانب . فهذا الأمر لا يعلم حقيقته أصلا . وإذا لم يعرف وجب إحسان الظن بكل مسلم يمكن إحسان الظن به . ومع هذا فلو ثبت على مسلم أنه قتل مسلما ، فمذهب أهل الحق أنه ليس بكافر . والقتل ليس بكفر ، بل هو معصية . وإذا مات القاتل فربما مات بعد التوبة . والكافر لو تاب من كفره لم تجز لعنته ، فكيف من تاب عن قتل ؟ وبم يعرف أن قاتل الحسين رضى الله عنه مات قبل التوبة ؟ (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده)

« فإذن لا يجوز لعن أحد ممن مات من المسلمين . ومن لعنه كان فاسقا عاصيا لله تعالى . ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصيا بالإجماع . بل لو لم يلعن أبليس طول عمره لا يقال له يوم القيامة : لم لم تلعن إبليس ؟ ويقال للاعن لم لعنت ؟ ومن أين عرفت أنه مطرود ملعون ؟ والملعون هو البعيد من الله عز وجل ، وذلك غيب لا يعرف إلا فيمن مات كافرا ، فإن ذلك علم بالشرع . وأما الترحم عليه فجائز ، بل هو مستحب ، بل هو داخل فى قولنا فى كل صلاة : اللهم اغفر للمؤمنين ، والمؤمنات فإنه كان مؤمنا والله أعلم . كتبه الغزالى اه . . . »

وإنى أختم كلمتى هذه بذكر حادثة وقعت بين الحجاج وعمران بن حطان الخارجى ، ذلك أن عمران بن حطان كان خارجيا وجئ به إلى الحجاج أسيراً ، فأطلقه وعفا عنه ، فقعد عن القتال . فقال له الخوارج : كيف تقعد عن قتال المشركين ؟ فقال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه بيد تقر بأنها مولاته ؟
ماذا أقول إذا التقينا فى غد فى الصف واحتجت له فعلاته ؟
وتحدث الأقوام أن صنائعاً غرست لدى فحنظلت نخلاته ؟
أأقول : قد جار الأمير وإننى لأحق من جارت عليه ولاته

فى أبيات أخرى .

فالحق أن هذا الخارجى كان أنبل صنعاً ، وأبعد فى الشكر للصنيع مدى من أهل المدينة .

عبد الوهاب النجار

ترجمة قصيدة فيكتور هوجو

في رثاء طفل أصيب برصاصتين من يد الجند

عند اعتلاء نابليون الثالث عرش الامبراطورية سنة ١٨٥٢

بقلم الدكتور أحمد ضيف

الأستاذ بدار العلوم

أصيب الطفل برصاصتين فى رأسه .
وكان هذا البائس نظيف الجسم ، مطمئن النفس ، طاهر الذيل .
وهناك رأينا فرع شجرة معلقاً فى إطار صورة .
وامرأة عجوزاً كانت تبكى .
فخلعنا ثياب الطفل ونحن صامتون .
وكان فمه الشاحب اللون فاغراً .
وعيناه الجافتان غارقتين فى الموت .
وذراعه متدلية كأنها تطلب شيئاً تتوكأ عليه .
وبجانبه خذروف (نحلة) كان يلعب به .
ولقد كان من المستطاع أن يغرس الإنسان إصبعه فى أديم جسمه .
هل رأيت الفاكهة الناضجة وسط الشوك ؟
وقد انشق رأسه وكأنه خشب مثقوب .
وكانت جدته تنظر إلينا ونحن نخلع ثياب حفيدها .
وتقول : ما أشد بياض جسمه ! قربوا منه المصباح .
يا إلهى ، إن شعره ملتصق بخده .
ثم أخذته فى حجرها .
وكانت الليلة مظلمة ، وأصوات المدافع تسمع طلقاتها يقتل بها آخرون .
فقلنا : لابد من دفن هذا الغلام .
فجىء بحلة ، وقربته العجوز من الموقد ، وكأنها تريد أن تدفىء رجليه الباردتين ،

ولـكن من ذهب الموت بحرارته لا يدفأ جسمه .
ثم تدلت برأسها لخلع جواربه .
وأخذت فى يديها الضعيفتين أرجل هذا القتيل .
وقالت : ألا يثير هذا غضب الحليم ؟
إن هذا الطفل لم يصل بعد إلى الثمانية .
لقد كان أساتذته يحبونه لاجتهاده ولباقته .
وعند ما كنت أحتاج إلى كتابة رسالة كان هو الذى يكتبها لى .
فهل تقتل الأطفال الآن ؟
اللهم إنهم قطاع طريق .
ولـكن خبرونى ، لقد كان يلعب هذا الصباح أمام هذه النافذة ، والآن يقولون:
نهم سلبوا منى هذا الطفل وقتلوه .
لقد كان ماراً فى طريقه فأطلقوا عليه النار .
سيدى (تخاطب نابليون الثالث) لقد كان هادئاً طيب القلب ، كأنه فى ثياب المسيح.
أما أنا فإنى عجوز ، وسأموت ، وهذا لا يرضى سيدى بونابرت .
كان الأجدر قتلى بدل قتل ولدى هذا .
ومنعها البكاء من الـكلام .
ثم قالت وهى تنتحب :
ما ذا أعمل الآن وحدى ، وليس معى أحد ؟
ألا من حيلة يـأهل هذا الزمان ؟
وا أسفاه !
لم يكن لى من أثرِ أمه غيره .
فلماذا قتلوه ؟
أريد أن أعرف لماذا .
إنه لم يناد : « تحيا الجمهورية » .

***

كنا واقفين نسمع كلامها حاملين قبعاتنا في أيدينا ، وفرائصنا تهتز أمام هذا المشهد المروع الذى لا يذهب بأثره فى النفوس شىء .

أحمد ضيف

نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف

بقلم محمود السيد عبد اللطيف

المدرس بدار العلوم

ثبت بطريق التواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه . » وقد رأيت أن أتناول فى هذا المقال شرح هذا الحديث الشريف، فأبين الغرض من هذه الأحرف السبعة ، كيف نزلت وجمعت ، وكيف كتبت وقرئت ، وهل المراد بها هذه القراءات السبع التى اشتهرت بين القراء فى الأقطار الاسلامية ، أو هى غير ذلك ؟ وهل هذه الأحرف السبعة وصلت إلينا عن النبي من طريق الكتابة والحفظ معاً ، أو من أحد الطريقين ؟

ذلك ما أرجو بمعونة الله وتوفيقه أن أحاول تفصيله ، وأنصل دليله ، وأسأل الله تعالى أن يحفظنى من الزلل ، ويبعدنى من الخطل ، وأن يلهمنى السداد ، ويرشدنى إلى سواء السبيل .

الأحرف السبعة ليست هى القراءات السبع :

أجمع العلماء على أنه ليس المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع المشهورة ، المنسوبة لسبعة من القراء . وإن كانت قراءاتهم لا تخرج عن الأحرف السبعة ، كما لا يخرج عنها قراءات غيرهم ممن تواترت رواياتهم ، وثبتت لدى جماعة المسلمين صحة نقلهم ؛ ذلك لأن القراء السبعة لم يكونوا قد خلقوا ، ولا تلقوا ما كانوا يقرءون به ، وكان المسلمون من قبلهم يقرءون بما سمعوا من النبي وأصحابه ، مما يوافق ما قرأه هؤلاء السبعة أو يخالفه ، معتمدين فى ذلك على الرواية المتصلة بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، ولو كان المراد بالسبعة الأحرف فى الحديث قراءة هؤلاء القراء المعروفين : لما ساغ لأحد قبلهم أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء ، إذا ولدوا

وتعلموا القراءة، اختاروا القراءة به، وإلا كان قارئاً بغير ما أنزل من القرآن؛ وذلك ظاهر البطلان.

وأجمعوا أيضاً على أنه ليس المراد من الحديث الشريف، أن كل كلمة أو جملة منه قد نزلت على سبعة أحرف، ولكن القرآن الكريم - فى جملته - هو الذى نزل على سبعة أحرف؛ فقد روى فى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «أقرأنى جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى، حتى انتهى إلى سبعة أحرف.»

وقد ثبت بالأحاديث الصحيحة، أن كثيراً من أصحاب رسول الله كانوا يختلفون فى قراءة الآيات من السورة الواحدة، وأن الرسول أمرهم أن يقرأ كل رجل منهم كما علم.

أشهر الأقوال فى الأحرف السبعة:

ونعود الآن إلى المراد بالأحرف السبعة فنقول: إن العلماء قد اختلفوا فى ذلك اختلافا كثيراً؛ فبلغت أقوالهم نحو أربعين قولا، منها:

١ — أن الحديث من المشكل الذى لا يدرى معناه.

٢ — أن المراد بالسبعة مجرد الكثرة لا حقيقة العدد.

٣ — هى ما اشتمل عليه القرآن من وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، وقصص؛ وأنت ترى أن هذا القول وما ماثله، ليس فيه شىء من التوسعة التى طلبها النبى لأمته؛ فإن القرآن الكريم فى أى قراءة من قراءاته، لا يخلو من هذه الأغراض، ولا يقع به ما ثبت وقوعه بين قراء الصحابة من الاختلاف.

٤ — أن المراد كيفية النطق، فيكون التغير باختلاف الحركات مع بقاء المعنى، كما فى: «مُتُّمْ» يُقرأ الفعل بضم الميم وكسرها، وباختلاف المعنى لاختلاف الاعراب، كما فى قوله تعالى: «فتلقى آدم من ربه كلمات.» بجعل آدم فاعلا وكلمات مفعولا، أو بعكس ذلك، وباختلاف المعنى لاختلاف الحروف، مع بقاء صورتها الخطية (بقطع النظر عن الإعجام) كما فى قوله تعالى: «هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت» قرىء تبلو بتاء وباء، وتتلو بتاءين، وباختلاف الحروف مع بقاء

المعنى فى نحو « الصراط »و « السراط » ، أو بتغيرهما معا كما فى قوله تعالى : «وانظر إلى العظام كيف ننشزها » قرئ ننشرها بالراء بدلا من الزاى ، فالنشر بالراء : الإحياء بعد الموت ، والنشز بالزاى : ضم بعض العظام الى بعض . على الصورة التى تصلح معها للحياة ؛ والمعنى وإن اختلف فى القراءتين يقصد به إلى غرض واحد ، وهو الدلالة على قدرة الله (تعالى) على إحياء الموتى . ومنها الاختلاف بالتقديم والتأخير كما فى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » ببناء الفعل الأول للمجهول والثانى للمعلوم ، وعكس ذلك ، وقد يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ، كما فى نحو قوله تعالى : « وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار » وقرىء من تحتها بزيادة (من)

بيان أن المراد بالأحرف اللغات :

٥ — ويرى كثير من العلماء ـ وهو أصح الأقوال وأجمعها لكثير مما فصلته ، وقريب فى جملته من القول الرابع ـ أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب ، هى أشهر لغاتها ، وأفصحها ، وأكثرها دورانا على ألسنة الناطقين بالضاد من أبنائها ، وهذه اللغات السبع قيل من لغات القبائل المضرية وحدها ، وهم : هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتيم الرباب ، وأسد بن خزيمة ، وقريش . وقيل من لغات مضر واليمن وهى : قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن .

وبيان ذلك أن الحرف يطلق لغة على الوجه ، كما فى قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » أى على وجه من النعمة ، أو الخير ، أو العافية . أو نحو ذلك فهو باق على عبادته ما بقى له ما رغب فى العبادة من أجله ، فإذا صرف عنه ترك العبادة وكفر ، فخسر الدنيا والآخرة . فسمى النبى هذه الأوجه المختلفة من القراءات من اللغات أحرفا ، على معنى أن كلا منها حرف أى وجه . ويرى كثير من العلماء أن القرآن الكريم نزل أولا بلغة قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها ، على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغته إلى لغة

أخرى للمشقة ، ولم تقع هذه الاباحة بالتشهى ، فيكون لهم أن يغيروا الكلمة بمرادفها من لغاتهم ، ولكن ذلك كان بالسماع والنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك تيسيرا من الله (تعالى) على أمة النبي ، فقد أمروا أن يقرءوا القرآن فى عباداتهم ، وأن يتقربوا إلى الله بتلاوته ، ولو كلفوا جميعا أن ينطقوا بلغة واحدة ، لشق عليهم ذلك وتعسر ؛ إذ لا قدرة لهم على ترك ما اعتادوه وألفوه ، إلا بتعب وجهد شديد ، وقد لا يستطيع ذلك بعضهم حتى مع الرياضة الطويلة ، كما نشاهد ذلك فى اختلاف اللهجات العربية في بلادنا بالإمالة ، والترخيم ، وإبدال بعض الحروف ، وتغيير الحركات ـ فى نواحى القطر المختلفة. ومما يدل بأوضح بيان على أن المراد بالأحرف الأوجه من اللغات ماروواه الترمذى أن (النبى) عليه السلام قال لجبريل : « إنى بعثت إلى أمة أميين ، فيهم الشيخ الفانى ، والعجوزة الكبيرة ، والغلام » قال : فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف ، وفى رواية : فمن قرأ بحرف منها فهو كما قرأ .

تلقى الصحابة القرآن بلغات السبع :

ولم يقتصر الصحابة (رضوان الله عليهم) فى تلقى القراءات عن النبى (صلى الله عليه وسلم) على لغاتهم وحدها ، بل كان القرشى يتلقى القراءة بلغته وبغيرها مما يقرؤه النبى بلغات القبائل الأخرى ، ولذلك حفظ القراء من المهاجرين والأنصار هذه القراءات المختلفة ورووها لغيرهم وعلموها من أراد أن يتعلم من المسلمين جميعا ، فقد روى البخارى أن عمر بن الخطاب سمع هشام بن حكيم ـ وهما معا من قريش ـ يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم يقرأها عمر ، فانطلق به يقوده إلى النبى وقد لببه بردائه ، فأمره النبى أن يرسله وقال : اقرأ ياهشام ، فقرأ ، فقال : كذلك أنزلت . ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأ ، فقال النبى : كذلك أنزلت ؛ إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه . وأنت ترى من هذا ان النبى لم يكن يقرأ على كل قوم بلغتهم وحدهم، بل كان يقرأ بما نزل عليه من اللغات كلها، ويتلقى عنه من يحضره من الصحابة ما قرأ .

اختلاف اللغات، اختلاف تنوع لا تناقض :

وبعد فلم تكن هذه اللغات السبع، وما تقتضيه من تغاير فى بعض كلمات القرآن الكريم، أو في كيفية النطق بها ـ مما يستوجب تناقضا فى المعني وتضادا، وإنما هو كما ستراه مفصلا ـ اختلاف تنوع لا تختلف به أحكام القرآن الكريم وحدود الشريعة، ولا يذهب شيء منه بتلك الحلاوة والعذوبة فى أساليبه، أو بتلك البلاغة المعجزة التى تتجلى لك فى معانيه، وكل قراءة من القراءات هى من أختها بمنزلة الآية مع الآية، يجب الايمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا، إذ لم يقع بذلك شيء من الاختلاف فى أوامره ونواهيه، ولا في حلاله وحرامه، ولا فى وعده ووعيده، أو فيما ذكر من أخبار، وضرب من أمثال، وأحكم من موعظة، وأنت واجد من الروعة فيما قد تختلف به القراءات ـ فلا يقع من ذلك شيء من الاختلاف فى المعنى المراد ـ ما تجده من الروعة فيما تكرر من القصص والأخبار فى سور القرآن، فجاءت كل قصة فى كل مرة صورة واضحة، ومثلا عاليا للبيان والإعجاز؛ فهذه قصص نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة قد تكررت فى أساليب عربية، مختلفة فى الأسلوب، وفي كثير من الألفاظ، فما زادها ذلك إلا حسنا وجمالا. ولم يختلف مع ذلك شيء من المقصود بها، وكان ذلك برهانا بالغا من العزيز الحكيم، على أن ما تحداهم به من الكتاب الكريم، مما تتسع اللغة العربية لمحاكاته فى صور شتى، لو كان فى مقدور البشر أن يتاح لهم الإتيان بمثله. وكان فى تكرير هذا القصص ـ زيادة على ما فيه من تثبيت الموعظة ـ قطع لألسنة المفترين. وإفحام للمعارضين. «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا».

اختلاف القراءات باختلاف اللغات :

ونعود فنذكر أمثلة لاختلاف القراءات باختلاف اللغات، تبيينا لما أسلفنا من أن الغرض هو التيسير على هذه الأمة، رحمة من الله ولطفا، فمن ذلك: قراءة الهذليين «عتى حين» يريدون (حتى حين). وقراءة بنى أسد الأفعال المضارعة بكسر أولها فى نحو قوله تعالى: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» بكسر التاء

فى الفعلين وفى نحو قوله تعالى : « ألم إعهد إليكم يابنى آدم » بكسر همزة المضارعة، وقراءة القرشيين : « الذين يومنون بالغيب » بدون همز (يومن) وقراءة تميم بالهمز وقراءة بعض العرب (عليهم ، فيهم) بضم الهاء ، وقراءة آخرين بوصل الميم بالواو، وقراءة نحو موسى وعيسى ودنيا بإمالة الألف نحو الياء : إلى غير ذلك مما نسمعه من قراء القراءات . كل ذلك مما قرأه النبى ، ورواه الصحابة الأجلاء عنه حفظا وكتابة ، ومما دونه عثمان فى مصاحفه التى بعث بها إلى الأمصار .

زيادة القراءات على سبع :

وبعد ، فإن مما يدور بخلد القارىء، أنا نجد القرآن يقرأ على وجوه كثيرة ، تزيد على سبع ، فإذا كان عدد الأحرف ـ أى اللغات ـ سبعاً فقط كما يدل الحديث الشريف، فمن أين هذه الزيادة ، وكيف تكون قرآنا . وما أنزل القرآن إلا بلغات سبع ؟ ولم أجد فيما قرأت من الكتب من تعرض لذلك إلا من قالوا : إن لفظة سبع فى الحديث للكثرة لا للحصر ، مع أن الأقرب إلى الصواب أنها للحصر وحده .

وأرى ـ والله أعلم ـ أن كل لغة من اللغات كانت تتسع لأكثر من صورة من صور القراءة ، فليس فى قراءة لفظ « مالك » من قوله تعالى : « مالك يوم الدين» بصفة اسم الفاعل ، وبصيغة الماضى ونصب يوم على أنه مفعول به ، وبالاسمية على وزن كتف ـ ليس فى مثل هذا اختلاف فى اللغات، ولكنه تنوع فى لغة واحدة ، قد يكون له مثيل فى اللغات الأخرى ، فيجىء من ذلك كله طرق تزيد إلى مالا نعلم عدده ، مما شاء الله أن يجعله رفقا بعباده ، ورحمة ويسرا . والمرجع فيما تجوز القراءة به من هذه الطرق ، إلى أمور ثلاثة انعقد عليها الاجماع . فأولها ، صحة السند، بأن يروى القراءة عدل ضابط عن مثله، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة القراء الضابطين؛ وثانيها ، أن يكون ما يقرأ به مما يوافق وجوه العربية الشائعة ، وثالثها أن يكون موافقاً لأحد المصاحف العثمانية تحقيقا أو تقديرا ، فكل ما اجتمعت فيه هذه الشروط الثلاثة تجوز القراءة به ، ولا شك أن كل ما ثبتت روايته هو مما له وجه صحيح فى العربية ، ومما دون فى المصاحف العثمانية ؛ فأما ما وافق العربية والرسم ، ولم تثبت روايته ، فلا تسوغ القراءة به إجماعا ؛ لأن مدار القراءة على تواتر النقل ، أو صحة السند .

وسنفصل ما يتعلق برواية القرآن الكريم وجمعه وكتابته فى مقال تال إن شاء الله .

محمود السيد عبد اللطيف

الأدب بين العلم والفن

ما العلم ؟ ما الفن ؟ ما الفرق بينهما ؟ ما أقسامهما ؟ ما صلة الأدب بكل منهما ؟

بقلم أحمد الشايب
المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

— ١ —

يجلس طالب الهندسة أمام أستاذه بالكلية ، يتلقى عنه وعن الكتب ، مسائل الهندسة ونظرياتها ، مؤيدة بالبراهين العقلية الصادقة ، فيقال حينئذ : إن هذا الطالب يدرس علم الهندسة ، ولكنه يغادر بعد ذلك الدرس حجر الكلية وكتبها العلمية إلى الطرق ، والقناطر ، والمنازل ، والآلات الكهربائية والبخارية ، ليرسم ، ويبنى ، ويدير الأدوات ، وينشئ المحدثات ، مستخدما عدة وسائل يطبق بها هذه النظريات التى وعاها من قبل ، فيقال هنا : إن الطالب يدرس فن الهندسة . وهكذا نجد الهندسة علما . حين تدرس أمورا نظرية ، وفنا إذا اتخذت شكلا عمليا تطبيقيا ، تظهر آثاره فى المواد الحسية فى أغلب الأحيان . وكذا الشأن فى الطبيعة والكيمياء والزراعة : هى علوم ندرسها فى الكتب ، ونستمع إليها فى المحاضرات ؛ وهى فنون نشهد آثارها ، ووسائلها العملية فى المصانع والمزارع والمصاح . والبلاغة والنحو من هذا الضرب أيضا ، فهذه القواعد المقسمة أبوابا وفصولا وكتبا هى الناحية العلمية فيهما ، وأما التراكيب الصحيحة فى النحو ، والمطابقة لمقتضى الحال فى البلاغة ، فهى الظاهرة الفنية فى باب التعبير ، الذى يجمع بين الصحة والجمال جميعا .

ونكتفى بهذا القدر من التمثيل ، لعلنا نصل منه إلى ما يفتن به الناس ، مما يسمى

تعريف العلم والفن ؛ فالعلم ـ بناء على هذه الملاحظة السابقة ـ هو هذه المعارف الإنسانية فى أسلوب نظرى منسق . وأما الفن فهوهذه المعارف نفسها ، فى شكل عملى تطبيق . هذا هو الفارق العام بين العلم والفن ، وهو يشبه ما نعرفه فى علم النفس من الفرق بين قوتى الإدراك Cognition والنزوع Conation من مظاهر الشعور النفسانى . ولكن هذا الفرق الإجمالى بينهما لا يكفى لإيضاح ما نحن بعرضه ، من محاولة وضع الأدب منهما موضعا ثابتا واضحا ، يزيل هذا الإبهام الذى سيطر منذ العصور القديمة ، على هذه المصطلحات المتصلة بالأدب وعلومه وفنونه ؛ فلنتقدم قليلا إلى الموضوع .

للعلماء كلام كثير فى تقسيم العلوم إلى أقسام أو أنواع ، وهذا الكلام يدور حول هذا الأساس الذى يبنى عليه هذا التقسيم ؛ فمرة يقسمونها إلى علوم وصفية تقريرية ، تعنى بوصف الواقع وشرحه ، كالطبيعة والكيمياء والفلك ، وإلى علوم معيارية ، همها إيضاح المقاييس التى يجب أن تكون عليها الحياة الكاملة للأشياء ، فالمنطق يبحث فى وسائل التفكير الصحيح ، والتناسق هو مقياس علم الجمال ، وأما البلاغة فغايتها بيان المثل الأعلى للتعبير المؤثر الجميل . ومن العلماء من يترك ناحية الواقع والكمال السالفة ، ويقيم تقسيمه على أساس آخر ، هو مباحث العلوم ومقدار صلتها بالكائنات ؛ فعلوم شكلية Formal هى الرياضة والمنطق من كل ما يقوم على النظريات المجردة الخالصة ، وعلوم طبعية Watural تبحث فى مشاكل الطبيعة ، ومظاهر الكون تحليلا ونقدا : كالطبيعة والكيمياء . . . أما العلوم الأدبية Moral فإنها تتناول صلة الانسان بالزمان والمكان ، وحياته الاجتماعية فى هذه البيئات المختلفة : كالتاريخ والجغرافيا والأخلاق ، وهنا نضع أصول البلاغة والنقد الأدبى ومسائل النحو والعروض .

كذلك ينقسم الفن قسمين رئيسيين :

أولهما : الفن العملى أو النافع Useful art : كالنجارة البسيطة والبناء والفلاحة ، وهو ما يكون عمل الجسم فيه أظهر من عمل النفس ، وغاية هذا النوع الفائدة النفعية ، ولما كان وقفا على تلك الناحية الحسية للحياة ، سماه بعضهم الحرف

والصناعات . وقد تسألنى : ما نفع هذا القسم فى باب الأدب ، ولم نذكره هنا ؟ ولكنى أجدمن الحق على أن أشير اليه ؛ إتماما للتعريف بالفن أولا ، ثم لألفت النظر ثانيا إلى أن الأدب نفسه ، كثيرا ما يتخذ وسيلة لهذه الغاية النفعية وكسب المال ، فينقله بذلك من دائرته الأصلية إلى دائرة الصناعات ، ويفقد لهذا مكانته السامية ، وجماله الرائع .

وثانيهما : الفن الجميل Fine art ، وعمل النفس ـ أو الذوق ـ فيه أوضح من عمل الجسم : كالموسيقى ، والرسم ، والأدب ؛ وإذا كان لابدمن الإشارة إلى غاية هذا القسم ، فهى التعبير الجميل الصادق ، الذى يبعث فى نفوس الناس اللذة والسرور ، ويظهرهم على أسرار الحياة وأرواحها العميقة ، وهذا كلام يعوزه الإيضاح وضرب الأمثال ، وسترى شيئا من ذلك فى أثناء المقال .

والفن الجميل منه السمعي : كالموسيق والأدب ، ومنه البصرى البارز : كالنحت والنقش ، والبصرى السطحى : كالرسم الذى يصور الجمال بالخطوط والألوان .

ولعل هذه الصحيفة العتيدة تحتمل أن ألخص فيها بإيجاز شديد ، رأيا لفيلسوف الهند وشاعرها ـ تاجور ـ فى نشأة الفن وغايته ، وهذا الرأى ينفعنا كثيرا فيما نقصد هنا من صلة الأدب بسائر الفنون ، وهو مقتبس من محاضرة له ألقاها فى أمريكا عنوانها : ما الفن ؟ وقد ترجمها الأستاذ يوسف حنا منذ سنين . يرى تاجور أن أهم فارق بين الإنسان والحيوان ، أن الثانى يرتبط بالحياة ارتباطا يقف عند حدود الضرورة ، فلا يتعداها إلى الكماليات الفائضة ، التي تعد من أقوى مظاهر الحرية الإنسانية ؛ فالحيوان يقنع بما يسد كفايته من الطعام والشراب ، فى حين أن الإنسان يطمع دائما أن يتجاوز هذه الحدود ، فيضاعف أرباحه ، ويكدس ذخائره ، ويتلمس الأسباب لأنواع الرفاهية والنعيم ، ويتحرر حينئذ من كل ضرورة ملحة ، ويصبح سعيه فى سبيل المال غاية من الغايات المقصودة لذاتها ، دون دفع ضرورى ، وهنا نقول : السعى للسعى . كما يقال : العلم للعلم ، والفن للفن .

كذلك نجد معارف الحيوان تنتهى عند حاجته إلى المسكن والغذاء ، وتكييف نفسه على حسب الجو المحيط به ، ولكن الإنسان يعرف أكثر مما تتطلبه

ضرورات العيش. وهذه الزيادة من المعرفة، هى التى تدفع الإنسان إلى الفخر بأنها المعرفة للمعرفة، وهى التى تشعره بلذة الحرية، وتسمح له أن يقيم عليها علومه وفلسفاته.

فإذا تركنا هاتين الناحيتين الحسية والعقلية، إلى ناحية الوجدان، رأينا أن الإنسان يشترك مع الحيوان فى ضرورة التعبير عن عواطف الفرح والألم والخوف والغضب والحب. وهذا التعبير الوجدانى لا يتعدى حدود المنفعة، عند الحيوان، ولكنه عند الانسان يتصل بسبب قوى إلى نفس الحدود النفعية، ثم يتجاوزها إلى آفاق أخرى، يكون التعبير فيها عن الوجدان غير مقصود به حفظ الحياة، وإنما هو التعبير للتعبير، أو يكون الفن للفن Art for art's sake، فالإنسان له فيض من نشاط العاطفة، يزيد كثيرا عما تتطلبه حاجته إلى منفعته وحفظ نفسه، وهذا الفيض العاطفى صعب على النفوس كبته؛ فهو يحاول دائما الخروج إلى الكون في شكل ما، وهذه الأشكال هى نتاج الفنون.

— ٢ —

وإيضاحا لهذه النظرية التى عرض لها تاجور نقول: إن هذا الفيض الوجدانى طبعي فى الإنسانى، بكر فى الظهور، وبدت مظاهره من أقدم العصور، ولا تزال تزداد وتتنوع حتى الآن، وستبقى متجددة ما دامت الحياة؛ ففى فجر التاريخ ارتاع الإنسان بمظاهر الكون. وأدهشته الكواكب السائرة، والطبيعة الجميلة، فانتفع بها أولا، ثم اشتد وجده بها فعبدها ثانيا، وما كانت هذه العبادة إلا لُغَةً فنية، عَبَّر بها الإنسان الأول عن عواطف الإعجاب والشكران، ثم انتصر المحارب على قرنه وأخذ يبتهج بهذا الفوز، مغنياً راقصاً، أو معبراً عن عواطف الفرح والشماتة، وكان غناؤه أول الأمر أصواتا مبهمة، ونغمات لا تدل على أفكار، أو معان صريحة محدودة، كان أشبه شىء بما يتصايح به العمال حين ينقلون حملا ثقيلا، أو يجرون مركبا فى البر والبحر، فتسمع منهم «هيلا هيلا، هيلا هب هيلا...» لغة تصور عاطفةً مَا، دون إفصاح عن المعانى والأفكار. وتلا ذلك دور آخر، حلت فيه الكلمات ذوات المعانى محل هذه الكلمات المبهمة، وعن ذلك نشأت الأناشيد، أو قل: نشأ الشعر أحد هذه الفنون الجميلة، ولما حاول الإنسان تسجيل ما فى نفسه

بالكتابة عاش مدة وهو قانع بسذاجتها ، ولكنه أخذ يحملها ويعقب عليها بألوان من الزخارف والتهاويل ، حتى نشأ فن الرسم والنقش والتصوير — أى عمل المصور وهى التماثيل — وغيرها . ومعنى هذا كله أن هناك عواطف قوية صادقة تسيطر على نفس الإنسان ، وتلح عليها محاولة الخروج إلى الكون ، كما يتنفس الإناء عن بخار الماء المغلى ، فإذا بنا نرى هذه العواطف الفائضة في شكل الرقص أو الغناء ، أو الرسم ، أو التصوير ، أو الكلام ، نسمعها ألحاناً موسيقية ، وقطعا أدبية ، ونشهدها حركات توقيعية ، وألواناً متناسقة ، وأجساماً مصقولة مهذبة ، وهذه هي الفنون الجميلة التى أشرنا اليها فيما أسبقنا منذ حين ، وقد رأيت أن الأدب أحدها ، وسنرى فيما يلى أنه يجمع فى تعبيره بين فئة منها ، ثم يمتاز بعد بالصراحة والإفصاح .

وهنا نعود إلى العلم والفن ، وما قد يكون بينهما من فروق ، تتصل بتاريخهما وصلتهما بالحياة ، بعد ماعرفنا أن العلم يتناول الناحية النظرية من المعرفة الإنسانية والفن يتناول ناحيتها التطبيقية العملية : —

(١) من هذه الفروق ما يلاحظ من أن الفن أسبق إلى الوجود من العلم ، فالشعر وهو فن ، جاء سابقاً لعلم العروض ، والتعبير الصحيح كان قبل النحو وقواعده ، ومما لا شك فيه أن أصول العروض وقواعد النحو مستنبطة من النصوص الأدبية لا العكس ، وهذا معناه أن فن الأدب بكر إلى الحياة قبل علم الأدب ، كذلك تغنى الناس ونفخوا فى أعواد القصب والمعادن ، قبل أن يعرفوا مبادىء الغناء ، ورموز الموسيقا . وقد خلق الإنسان قبل أن يعرف عن نفسه شيئاً وازدانت الطبيعة بالأزهار والثلوج ، وتغنت البلابل على الأيك ، ولمعت السحب بالبروق وخفقت جوانحها بالرعود . . قبل أن يتحرى الانسان حقائقها ، ويحاول تقليدها . أو يضع لها هذه القوانين الصارمة التى هتكت بعض أسرارها ، ولكنها لم تقدر على محوها ، أو القيام بوظيفتها السامية البديعة ، وهكذا لم تستطع فلسفة أرسطو أن تنسخ فن هومير .

(٢) كذلك يختلفان من حيث صلتهما بالحياة . فالعلم يتناول الحياة كما هى فى

الواقع دون أن يخلع عليها شيئاً غريباً ، ولكن الفن يتناولها كما يريد الفنى نفسه، فلا يكتفى بعرضها كما هى دون أن يسدل عليها من نفسه ثوباً خلاباً ، هو وحى عاطفته ونسج خياله ، فالعلم يقف من قوس الغمام والأزهار والسحب السارية والطلعة البهية ، فاحصاً محللا ، يعنى بتعليل الألوان والأجزاء ، كيف تتألف وتتناسب ، وكيف تنمو وتذبل ، ثم يتلقى عنها ما تمليه عليه وسائله العلمية ، ويدونها نتائج وقوانين ، يخضع لها فى دراسته.وفى مقدار استغلاله للكون ، فإذا ما عرض الفن لشىء من ذلك ـ وليكن هو الرسم مثلا ـ لم يعن بهذا التدقيق والتحليل الحسى الجاف ، وإنما يعنى بأمرين آخرين ، أولهما ما يفهمه الرسام فى الزهرة أو المنظر ، من معنى الوداعة أو التآلف أو الجلال ، وثانيهما ما يرى أنه يمثل هذه المعانى تمثيلا جميلا قوياً ، فيختاره ويؤثره على سواه من عناصر هذه المناظر؛ فالوردة فى ألوانها ووضعها ، ولا يبالى فى الشجرة عدد أوراقها أو أفنانها ، بقدر ما يبالى شكلها ولونها وثمارها وظلالها ، وما قد يأوى إليها من الطيور ، ويريف ظلها من الخلائق ، فإذا فهم ما يريد هو أن يفهم ، ثم اختار ما يراه هو ملائماً لذوقه الفنى ، عمد إلى الرسم ، فأبرز لنا صورة منتقاة العناصر ، دالة على معان شائقة هى روح الطبيعة ، وسرها الرائع ، وقد يزيد على هذين أشياء يكمل بها نقصاً ، شهده فى الطبيعة نفسها ، ألست ترى أن طاقة الورد المرسومة ، قد تكون أجمل تنسيقاً ، وأدل على البراعة من هذه الأزهار المتناثرة فى البستان ، التى لا يجمعها نظام، ولا ينظمها ذوق مستقيم ؟ ثم ألست تجد فى وصف الطبيعة من السحر والفتنة ، ما لا تظفر به فى الطبيعة ذاتها ؟ بلى ، وذلك لأن الرسام أو الشاعر قد عرض عليك الطبيعة حية فيها نفسه وتفسيره لها ، واستخراجه لأسباب جمالها . . . أو عرض عليك الحياة من خلال عينه وكما رآها . . . مرت سيدة أمام رسام ، فراعتها لوحة فيها منظر طبعى بديع ، فقالت له : ولكن الطبيعة ليست كذلك ! فأجابها من فوره : ولكن أما كنت تودين أن تكون الطبيعة كذلك ؟ . . .

وهذه القصة تشير إلى أن الفن كثيراً ما يرسم المثل العليا للحياة ، وأرجو أن ألم بذلك حين أذكر غاية العلوم والفنون . فإذا كان الفن تصويراً شاهدت

التمثال ذا خواص بارزة ، تصور لك نواحى الجمال أو العظمة لصاحبه . ولعل الموسيقا من أشد الفنون رمزاً ، وأقواها اتصالا بالعاطفة الروحية دون عناية بالحسيات ، وهذا هو الأدب يسلك هذا المسلك نفسه ؛ فالربيع فى رأى العلم أحد فصول السنة ، يحل لأسباب طبعية خاصة ، وفى شهور معينة ، تصحبه مظاهر جميلة من زهر نضر ، ونسيم معتدل ، وأريج عطر ، إلى غير ذلك من الحقائق المقررة ، التى لا يختلف فيها الناس ، مهما تختلف بهم البيئات ، ولكن الربيع فى رأى الأدب هو ماقاله البحترى مثلا : —

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا   من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى   أوائل ورد كن بالأمس نوّما
يفتحها برد الندى فكأنه   يبث حديثا كان قبل مكتّما
ومن شجر رد الربيع لباسه   عليه كما نشّرت وشيا منمنما
ورق نسيم الريح حتى حسبتُه   يجىء بأنفاس الأحبة نعَمَا

زائر باش ، مزهو بجماله ، يكاد يحدثك عن نفسه وجماله ، طاف على الورود فى ظلمات الليل فأيقظها من سباتها ، وكشف بنداه عن تيجانها ، حتى نشرت شذاها العبقرى ، وكأنه كان سراً مكتوماً أفشاه الندى ، وهذه الأشجار قد زينت بما خلع عليها الربيع من حلل تشبه الوشى ، زركشته يد صناع . وأما النسيم ؛ فما أشبهه بأنفاس الأحبة الناعمات فى رقته وشذاه ، فهذه الصورة الفنية للربيع ، تتجافى كثيرا عن التحليل العلمى ودقته الجافة . وإن تعمقت إلى أسباب جماله . وأبعد أسراره ، فعرضته علينا كائنا حيا ، ذا إرادة قادرة على الإبداع والزخرف ، وهى صورة من نفس الفنى خلعها على الربيع ، وأخضعه بذلك لسلطان نفسه ، ورسمه كما شاء .. العلم يخضع للحياة فيستمليها ويكتب ، والفن تخضع له الحياة فيتصورها ويرسم .

(٣) ويتصل بذلك فرق آخر بين العالم والأديب ، فلو أنك أوقفت رجلين : عالم وأديب أمام الأهرام ، لرأيت عجبا فى اختلاف نظرهما إلى هذه الآثار الخالدة ، فهمُّ العالم مقاييسها ، وطرق إقامتها ، وأساس أوضاعها ، والغرض منها ، وصلتها بالعقيدة الدينية عند المصريين القدماء . ولكن الأديب يراها جملة لا تفصيلا ،

فإن كان عنها راضياً كانت سجل المجد وصحيفة الخلد . وآية المفاخر ، ومعجزة الدنيا ، وإن كان ساخطا بدت له رمز الظلم والجبروت ، وشاهد الذلة والعبودية ، و لسان السخط يذيع عن الفراعنة عنتا واستبدادا فى الدنيا إلى آخر الدهر . وإن كان حكيما رآها سمة الجلال والوقار ، قامت تسجل على الناس ماقدموا من الخيرات والسيئات ، تتلو عليهم عبر الحوادث ، وتقص عليهم العظات ؛ فنى ثناياها تاريخ الدنيا وتجارب الأيام . والسر فى ذلك أن العالم يتلقى الحياة بعقله ، ويحاول دائما أن يخضعها لقوانين عقلية وتجريبية ، يشترك مع سواه فى إدراكها ؛ إذ كانت هذه الحقائق العلمية لاتدل على الشخصية دلالة العاطفة عليها ؛ كما وضحنا ذلك فى البحث السابق . ولكن الأديب يتلقى الحياة بمزاجه وعواطفه الخاصة به ، ويفسرها تبعا لهذه الشخصية . تدخل مشاهد الدنيا إلى نفسه البهجة الطروبة ، فتصور تصويراً جميلا وتخرج أدبا فرحاً طروبا . . . فإذا كانت نفسه حزينة متشائمة فسرت المشاهد بؤساً وأسفا ، وكان الأدب حزينا متشائما . . . وهكذا نجد نفس الأديب أشبه بإناء فيه صبغة ذات لون خاص، تغمس فيه الأشياء فتخرج مصبوغة بما فيه . وهناك نذكر ماقاله الأستاذ ماتيو أرنولد Mathew Arnold عن الشعر بأنه «نقد الحياة» أى تفسيرها هذه التفاسير التى أشرنا إليها ، وهذه الكلمة التى قالها عن الشعر ، أخذها النقاد الآخرون ، وأطلقوها على الأدب جميعه شعرا ونثرا .

ولما كانت الشخصيات الفنية مختلفة باختلاف الفنيين، رأيت لكل منهم نظرته الخاصة إلى الأشياء ، وأسلوبه الممتاز فى التعبير عنها ، لذلك اختلف الرسامون فى رسم الشىء الواحد ، والمصورون فى نحت التماثيل ، والموسيقيون فى تلحين الدور بعينه . والشعراء في تصور ما يشهدون ، فالشيب فى رأى المعرى نتيجة طبعية للحياة ، لا يصح إخفاؤه بالأدهان والأصباغ :

والشيب أزهار الشباب . فماله يخفى وحسن الروض فى الأزهار؟

والشيب عند الشريف الرضى سيف مصلت على الرءوس ، لاقوة ماضية فى يد الناس ، كما يقول المغالطون :

غالطونى عن المشيب وقالوا : لاتَرُعْ إنه جِلاء حُسامِ

قلت : ما أمِنْ مَن على الرأس منه صارمُ الحد في يد الأيام

وتجد الشاعرين يتفقان على حسن الشيء ، ولكنهما يختلفان في صورة الحسن؛ وكيف تكون ؛ فقد رأيت رأي المعري في المشيب والرضا به ، ورأيته جلاء حسام عند عذال الشريف ، وتجده عند الفرزدق نجوما تزين صفحة الظلماء :

تفاريق شيب في الشباب لوامع وما حسن ليل ليس فيه نجوم ؟

وهو كذلك عند البحتري ، ثم هو عنده أيضا بروق السحاب الندى :

أي ليل يزهى بغير نجوم أو سحاب يندى بغير بروق ؟

انظر حكمة الله في هذا الكون ؛ جعل الناس متفقين في الأمور العقلية التي تقوم عليها نظم الحياة فالكل متفق على أن خمسة زائدة خمسة تساوي عشرة . . وعلى قوانين المنطق ، ووسائل العيش ، وجعلهم مختلفين في هذه الوسائل الفنية ، لما في ذلك من المتعة والبهجة ، والنعيم بالحرية إلى أبعد آفاقها . . فكم نرى رسوماً وتماثيل ، وألحانا ، وأخيلة لشيء واحد تواردت عليه عبقريات الفنيين ، فعرضته عليك صفحات ، فيها كل سحر مبين ، وكيف تكون الحال لو عكست الآية ؟ ألا يصيب الحياة إذاً جمود وملال ، ثم فساد واضطراب خطير ؟

(٤) كذلك يختلف العلم والفن من حيث الغاية ؛ فالعلم يغذى الفكر الإنساني ويعبر عن وظيفة الإنسان باعتباره حيواناً ناطقاً مفكراً ، والفن يغذى الوجدان ، ويعبر عن شخصية الإنسان باعتباره حيواناً شاعراً ، له فيض من وجدانه وضميره ، ولنوضح ذلك بشيء من التفصيل : هذه الحقائق العلمية يحصلها الإنسان بالنظر والتجريب ، ويكون بها عقله الاكتسابي ، وتصبح بعد حين حقاً مشتركا بين الأفراد ، لا يكادون يختلفون في تعرفها ، فكما أنها تصدر عن الفكر ، تتجه كذلك إليه تزيده نوراً وعرفانا ، وتزوده بالثقافة . وتعينه على الانتفاع بعناصر الطبيعة ، وكل ما في الكون من خيرات ، ومعنى ذلك أن غاية العلم تتجه في سبيل النفعية وعندها تنتهي . والفن ما غايته ؟ رأينا أن تاجور يميل إلى أن غاية الفن هي التعبير عن شخصية الفني ، والشخصية هذه إنما تتمثل في فيض الشعور ، والعواطف القوية الصادقة ، التي تتخذ من الألوان والألحان ، والعبارات الجميلة ، وسيلة ولغة لهذا التعبير

المقصود . وهناك من يرى أن غاية الفن هى الجمال، الذى يعرضه الفنى ألواناوألحانا وأعاريض؛ ليسرنا ويمتعنا ، وعندهؤلاء يكون الجمال غاية لاوسيلة ؛ بخلاف مايرى الفيلسوف الهندى الشاعر . وكلا المذهبين لاينكر على الفن مافيه من جمال للبصر ، ومتعة للنفس ، وراحة للإنسان ، وأنه دارة (واحة) فى صحراء الحياة ، يأوى اليها السفر مجهودين . فيطمئنون منها إلى ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، واستجمام للعافية ، يُعدونها لسرى الليالى ، وتأويب الأيام . وكلا المذهبين لا يريد أن يعنت الفن ، ويحمله ما لا يطيق ، ولا ما ليس من طبعه ، فحسبه مسرة النفوس ولذتها ، لا يعنيه أن يكون نفعياً يحمل مادة الثقافة والتهذيب ، هو الفن الذى يعبر لاغير ، أو هو الفن للفن ؛ كما قلنا أول الكلام .

ولكن هذا العصر الحديث أصيب بهذه التخمة المادية ، والنفعية الحسية ، وصار الناس لا يؤمنون بشىء إلا اذا حمل لهم فى طياته نفعاً محساً ، هو المال أو ما هو بسبيله مما يفيد ، وإذا بهذه الروح تجور على الفن نفسه ، وتطلب منه أن يكون نافعا وإلا أهين ورمى به من حالق ، فالفنى الذى كان يقصد من فنه إلى التعبير عن شخصيته ، أصبح أمام هذه النزعة الحديثة مضطراً أن يبث خلال تعابيره رسالة تهذيبية إصلاحية ، يرمى بها إلى تأييد مذهب سياسى أو اجتماعى أو خلقى ، أو يعمد إلى شرح فكرة فلسفية ، وعرض فترة تاريخية ، وبيئة قومية . . . وغير ذلك مما صرت تسمعه فى نقد الرسامين والمصورين والشعراء والقصاص والموسيقاريين . ماذا يقصدون بهذا ؟ ما رسالتهم الفنية ؟ هل أحسنوا التفكير والتصوير والتعبير ؟ وعندى أنه لا بأس بأن يحمل الفن فى طياته أسباب الإصلاح ، فيجمع بذلك بين النفع والجمال . ولكن الخطر الخطير ، أن تحل النفعية سيداً عظيما ، لاضيفا كريما . . . نعم نخشى سلطان النفعية التى تنقل الفن من مجاله إلى دائرة الحرف والصناعات . . . وقد رأينا من فروع هذا الخلاف مسألة الحرية الفنية : أيكون الفن حرا يصور ما يشاء سواء أكان خيراً أم شرا . أم يجب وقوفه عند حدود الفضيلة لا يتعداها؟ وقد ألممنا بهذه المسألة فى العدد الثانى من صحيفة (الشباب) الأسبوعية فليرجع إليها من أراد . كما أشرنا فى صحيفة الجامعة المصرية إشارة مجملة ، إلى ما عسى أن يكون فى نواحى الشر من جمال ، فلنترك هذه الناحية إلى غيرها .

— ٣ —

والآن . فإلى أى الناحيتين يميل الأدب ؟ وما ذا عسى أن يصله بكل من العلوم والفنون ؟

الأصل فى الأدب ، أنه فن جميل ، يعبر عن شخصية الأديب ، ويصور عواطفه ، متوسلا إلى ذلك بهذه اللغة الكلامية التى تجمع بين الجمال والإفصاح ، ويتراءى ذلك فى الشعر ، والنثر الأدبى ، والخطابة ، ومن النثر الرسالة ، والمقامة ، والقصة ، والوصف ونحوها ، من كل ما يكون معرضاً لشخصية الكاتب ، وعواطفه المتباينة . ومع ذلك فنحن مضطرون أن نقف عند مسألتين تصلان بين الأدب وبين العلم ، كما نقف فيما بعد عند مسائل أخرى ، تصل بينه وبين الفنون .

(١) الأولى : أن الأدب لفظ أصبح يطلق الآن ـ بمعناه الخاص ـ على نوعين من الكلام ، يسمى أحدهما الأدب الإنشائى أو القوى ، والثاني الأدب الوصفى ، ثم يطلق الأدب بمعناه العام على كل ما يغذى النفس الإنسانية ، ويرهف مواهبها المعنوية . من أى أنواع المعارف ، وهذا المعنى العام قد ورد ذكره فى ذيل المقال السابق . وأدب القوة هو الأدب الحق ، الذى يطغى فيه عنصر العاطفة : من شعر رائع ، ونثر فنى بديع ، ويراد به إثارة عواطف خاصة فى نفوس القراء والسامعين مثل الحب ، والبغض ، والإعجاب . والحزن وقد يسمى لذلك أدب العاطفة ، ولهذا النوع مقاييس نقدية ، تخالف سائر الأنواع ، وهو أبعدها عن العلم ، وأدخلها فى باب الفن الجميل ؛ لقيامه على الشخصية ، كما اتضح ذلك من تعريف الأدب . والأدب الوصفى يكون نقدا أدبيا ، ويكون تاريخ الأدب ، والنقد يعتمد على الذوق من ناحية ، فيكون فنا ، وعلى قوانين عامة مستنبطة من الأدب القوى وخواصه ، فيكون بذلك علما . ومعنى ذلك أن النقد مزيج من العلم والفن ، وكذلك تاريخ الآداب ؛ فإنه يجمع بين النقد ، وبين معارف أخرى من علوم السياسة ، والاجتماع ، والجغرافية ، والنفس ، تتعاون جميعا على تكوين هذه الأحكام ، التى يصدرها مؤرخو الآداب ؛ فلن يسلم التاريخ الأدبى من الناحية العلمية ، يتكئ عليها ، ليستطيع النهوض بواجبه. وأما أدب الثقافة ـ وهو الأدب بمعناه العام ـ فالأصل فيه أنه علم كالتاريخ ،

والقانون ، يقصدمنه تغذية العقل بالمعارف العلمية ، التى لاتكون شخصية فردية، ولكنه يتأثر بالعاطفة ، التى يسد لها عليه المؤرخون والاشتراعيون حين يكتبون، فترى فيه صوراً جميلة للماضى أو الحاضر ، وتشعر بأن الكاتب يكره هذه المسألة ويحب تلك، ثم تجد الأسلوب نفسه متأثرا بهذا الشعور ، ومن ذلك يكتسب هذا النوع خاصته الأدبية ، فيصير علما فى أسلوب أدبى ، يقول تاجور : « والتاريخ الذى يقتصر فيما يكتب على سرد مايقرره العلم ، ومعالجة الأمور التجريدية ، يظل شيئاً خارجا عن منطقة الآداب ، ولكن حين يقص التاريخ وقائعه وحوادثه قصا ، يسير مع الشعر القصصى جنباً لجنب ، وذلك لأن قص الوقائع التاريخية يلبس العصور التى وقعت فيها تلك الحوادث لباس الشخصية ، فتنقلب تلك العصور عصوراً إنسانية فى اعتبارنا ، ونشعر بنبضات قلوبها الحية تضرب وتختلج ، ومن ذلك تستطيع أن تعرف متى يكون التاريخ علما ، ومتى يمس دائرة الفنون والآداب ».

(٢) المسألة الثانية التي تصل بين الأدب والعلم هى هذه العلوم الأدبية ، فاللغة والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والعروض ، علوم فى ناحيتها النظرية ، يقوم عليها الأدب ولا يستغنى عنها الأديب ، اللغة مادة الأسلوب ورموز المعانى . والصرف مقياس الكلمات وتنويعها ، والنحو يصلح التراكيب ويضبطها ، والعروض مقاييس الشعر وضابط ألحانه وموسيقاه ، والبلاغة هى قانون الصلة بين الكاتب والقارىء . هذه العلوم ليست أدباً ، ولكنها لازمة للأدب من حيث إنشاؤه ، وفهمه ، ونقده ، وتذوقه ، لايستطيع مشتغل بالأدب مجد ، أن يباشر مهمته قبل أن يثقف هذه العلوم ، ويأخذ منها بالنصيب الوافى ، وهذه المسألة مشهورة معروفة ، لا تحتمل الوقوف الطويل .

فلنترك إذاً هذا الوجه من الموضوع ، ولنبحث فيما يصل الأدب بالفنون :

١) أول مايلقانا من هذه الصلة ما شرحناه فى تعريف الأدب ، من أنه يعبر عن شخصية صاحبه ، ويصور عواطفه المختلفة ، وهل للفن الجميل عمل غير هذا ؟ نجد الرسم يعبر عن هذه العواطف بالخطوط والألوان ، معتمداً على التناسب بينها ، وانتقاء أقربها إلى ما يريد الرسام عرضه ، والموسيقا تلجأ إلى الألحان ، تؤلف

بينها ؛ لتنتج دوراً يمثل البلابل الغريدة ، أو العاصفة الشديدة ، أو الأمل الوثاب ، أو اليأس القاتل . كل ذلك فى بهجة الفرح الطروب ، أو ثورة المتبرم العنيد . والأدب تسمع فى عباراته أنة المحزون آده الهم وأضناه ، وصيحة السجين الثائر قيدته الكبول والأغلال ، ثم نجوى الغرام ملكت فؤاد العاشق الولهان :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا

غيّضن من عبراتهن وقلن لى : ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟

وكثيراً ما ترى الرماح المشتجرة ، والأرحام الممزقة ، تسيل بينها دماء عزيزة . وتفيض لمرآها دموع غزيرة ، حسرة وندما : —

شواجرُ أرماح تقطعُ بينها شواجرُ أرحام ملوم قطوعها

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

هذا الفن الأدبى الجميل يسمعك خطرات النفس ، ولكن فى إفصاح لا تلقاه عند فن سواه ، كما نذكر ذلك الآن .

(٢) نجد الأدب يلتقى مع الفنون الأخرى من ناحية العناصر التى تتألف منها جميعاً ، وهذه النقطة تحتاج إلى شىء من الإيضاح : فالموسيقا فن صوتى ، يتجه إلى العواطف مباشرة يثير منها حزنا أو سروراً . والأدب كذلك فن صوتى فيه أوزانه النظمية والنثرية ، التى تتحد فى مقاييسها ولى مع المقاييس الموسيقية ، ثم هو يتجه كذلك إلى العواطف ، يصورها ويهيجها ؛ كما رأيت ذلك منذ حين . . وإذا تركنا الموسيقا إلى الرسم والتصوير ، رأينا فنين يعبران عن عاطفة وفكرة . هما إكبار العظمة الحربية أو السياسية . أو الأدبية . أو الإجمالية . أو الإنسانية . ووسيلة التعبير عناصر حسية من الأصباغ والأحجار ، تأتلف أو تصقل ؛ لترمز إلى رحمة واسعة ، أو عبقرية نادرة ، أو فتنة ساحرة ، أو طبيعة جليلة . وفن الأدب كما رأيت يشارك هذين فى الإفصاح عن الفكرة ، والتعبير عن العاطفة ، وفيه عنصر الخيال ، الذى يقابل هذه الأصباغ والأحجار فيهما ، فإذا قرأت لشوقى قوله يصف إحدى خمائل الجزيرة : —

وخميلة فوق الجزيرة مسها ذهبُ الأصيل حواشياً ومتونا

كالتبرِ أفقا، والزبرجدِ ربوة والمسك تربا، واللجين مَعينا
وقفَ الحيا مِن دونها مستأذناً ومشى النسيمُ بظلها مأذونا
وجرى عليها النيلُ، يقذف فضة نثراً، ويكسر قرمزاً مسنونا

فهل تجد الأدب يقصر عن مدى الرسم والتصوير، فى استخدام هذه العناصر الحسية من الألوان والأجسام، يعرضها علينا مهذبة مصقولة، بخياله الرائع وأسلوبه الواضح الجميل؟ وأى فرق بين لوحة رسمت عليها النخيلة وقت الأصيل، وبين هذه الأبيات التى بعثت فيها الجمال حيا، وعرضتها تخطر أمامك فى حرم الشعر وحماه، مزهوة، ذات دل وإعجاب؟.. أجل. أنا أعرف هذا الفرق، ولكنه فرق يجعل هذه الفنون متشابكة، لا يستغنى فن منها عن أخيه، فاللوحة المرسومة تعرض عليك المنظر دفعة واحدة، بحيث تتعاون جميع عناصره على التأثير فى نفسك فى لحظة واحدة، والشعر يعرض عليك هذه العناصر متوالية متتابعة، فى كل بيت جزء، حتى إذا انتهيت من القراءة انتهى المنظر عرضاً وبياناً. فاذا امتاز الرسم بذلك ـ ومثله التصوير ـ وجدنا الأدب يمتاز بالإفصاح الواضح دون الاكتفاء بالإشارة الرمزية، التى قد تخفى على كثير من الناظرين.

وإذا كان فن الوصف الأدبي يقابل فن الرسم فإن القصة تقابل الخيالة (السينما) وخلاصة هذه النقطة: أن فن الأدب تتوافر فيه هذه العناصر المسيطرة على الفنون الأخرى، ولكنه يمتاز بالتعبير الصريح، ففيه العاطفة، والفكرة، والعبارة، وفيه هذا الخيال الذى يستمد عناصره من الطبيعة، ويكونها فى صور من التشبيه والاستعارة والمجاز وحسن التعليل، وتستطيع الرجوع إلى مقال تعريف الأدب فى العدد الثانى. حيث ذكرنا هذه العناصر، وأما شرحها مفصلة فقد يرد عليك فى الأعداد التالية إن شاء الله تعالى.

(٣) وغاية الأدب كغاية الفنون الجميلة الأخرى، وهب أن هناك خلافا فى تعيين هذه الغاية كما بيناذلك، فهل يغير ذلك من حقيقة الواقع، وهو ما لهذه الفنون من آثار تهذيبية، وثقافية، ولذيذة، تتعاون بها على ترقية الحياة، وإزالة جفوتها وتهوين مشاقها، والكشف عن أسرار جمالها، وتفسير مسائلها تفسيراً فكهاً،

حلوا، ولكنه مع ذلك فلسفتها العميقة، وحقيقتها السامية ؟! تقف أمام التمثال فيروعك منه صقل وامتلاس، وأجزاء بارزة تنطق بمواهب خاصة، واتساق ينم عن روح ممتازة، حتى إذا انتظمت بصيرتك هذه المشاهد كلها، أدركنا من ورائها تاريخا حافلا بالمآثر الحميدة، ومعانى تلتقى عند جزء من الإنسانية هو جماعها، ودعوة حارة خالدة إلى دين مجيد هو جهاد الحياة وسعادة الممات. واقرأ هذين البيتين للمتنبي :-

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا

تجده يثير فى نفسك عاطفة التشبث بالكرامة والعزة. ولكنه يأخذ بتفكيرك إلى مجال فلسفى عميق، فيقرر معك أن مطالب النفوس من الطعام والشراب واللباس، لا تستدعي هذا التطاحن العنيف، والتعادى الحاد، وإذاً فلم كل هذا الصدام والتناحر؟ إنه لغاية أخرى هى الحرية والكرامة التى هى غذاء النفوس الكريمة وحياتها الصادقة، وما سواها هو موت الحياة. وهنا نشير إلى أن الفنون ترسم فى كثير من الحالات أسمى المثل الحيوية. انظر إليها حين تجتمع على المسرح التمثيلى، تر أى عالم تغمرك به من جمال ذى فنون، و جلال مهيب تنسى منهما دنياك الواقعة؛ لأنك انتقلت إلى دنياك الكمالية. وكم من خطبة غيرت مجرى الحياة، وقصيدة رفعت خاملا، وأخملت رفيعاً، ولا تزال الأناشيد القومية سجل الماضى وآمال المستقبل، والفن أولا وآخراً هو زيت الحياة؛ إذا فقدته آلتها نالها الحريق.

(٤) هناك صلة أخرى بين الأدب وسائر الفنون الجميلة، تقوم على ترددها جميعاً بين الطبيعة الموهوبة للفنى، وبين الخضوع للقوانين التعليمية؛ فإلى أى حد يتمتع الفنى بحريته، معتمداً فى إنتاجه على مواهبه الطبعية وشخصيته المبتكرة؟ وإلى أى مدى يتقيد فى إنتاجه بهذه القوانين المقررة فى أصول الرسم والموسيقا والتصوير والبلاغة والنقد الأدبى؟

كثير من طائفة الفنيين والأدباء يفرون من قوانين الفن، و يحاولون الاعتماد على طبائعهم فى الآثار الفنية، مدفوعين بدعوى التجديد والابتكار، أو الغلو فى فهم

ما يراد بالشخصية والحرية الفنية ، أو بنوازع الغرور الكاذب ، وكثيراً مايهجم بهم ذلك على الزلل والأخطاء فيهزمون . وقد نرى بين الآثار الأدبية المعاصرة مظاهر شتى لنحو هذه العقيدة ، ولكنها مظاهر رعناء ، لم يكتب لها البقاء . كذلك نجد جماعة من المتحرجين الذى يجمدون عندمارسم القدماء ، لا يتزحزحون عنه ، ناسين أن الفن كالحياة ، كلاهما فى نمو دائم ، وتغير دائب . فقاموا يزودوننا بمقاييس محدودة حاسمة ؛ لنحكم بها على الآثار الفنية التى لم تخلق بعد ، ومن أغرب ما قرأت من ذلك قول ابن قتيبة فى مقدمة كتابه ، الشعر والشعراء : « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام - أقسام القصيدة - فيقف على منزل عامر ويبكى عند مشيد البنيان ؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما ؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير أو يرد على المياه العذبة الجوارى ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار . »

ونحن أمام هذين الطرفين لا ننكر أن هناك مواهب فنية تستطيع بعد عهد قصير من أدوار الدراسة أن تكون طيعة موانية تثمر العجب العجاب فى الأدب أو سواه ، ومن الحق على النقاد أن يهيئوا لها سبل النبوغ . ويقوموا منآدها لتسلك طريق الرشاد ، وهم حين يفعلون ذلك إنما يتقيدون بهذه القوانين الفنية العامة المرنة التى اشتقوها من الآثار الفنية الخالدة ، فيقفون موقفا وسطا بين المحافظة على أصول الفن وبين إفساح المجال للعبقريات الابتكارية الحديثة ، أما أننا نهمل القديم فخطأ واضح فيه تقطيع أوصال التاريخ من جهة ، وفيه إلغاء لجهود الفنيين السالفين من جهة ثانية . كذلك من العقم فى التفكير . ومعاكسة سير الحياة أن نفنى فيما قال الأولون ورسموا ، وبخاصة فى الفن ، لأن الفن صورة الذوق ، والذوق متغير بحكم الزمان والمكان ، وليس من شأن الفن أن يكون عالميا بل هو قومى . فلا نرى فيه هذه القوانين الحسابية والمنطقية التى تعلو على الزمان والمكان . هذا الأدب العربى نفسه سلك فى تاريخه هذا المسلك الوسط - على العموم -

فلم يبق جاهليا ، ولم يسبق عصوره التاريخية . ونحن حين ندعو اليوم إلى التجديد فانما نبغيه فى حدود إحياء القديم قبلا ، والمحافظة على أصول اللغة وطابع الأسلوب العربى ، مع إلباسه روح عصرنا وشياته العقلية والوجدانية الجديدة . ولست أطيل هنا بذكر الأمثلة ؛ فهذا النثر الحديث أصدق مثال للأدب الذى يحتفظ بالأسلوب المستقيم ، والموضوعات التى لا تكون إلا فى القرن العشرين ، هذا من الناحية العامة وأما من الناحية الخاصة فنرى الفنى : أديباً ورساماً وموسيقاراً ، إنما يبدأ حياته بتأثر الماضين وتقليدهم فيما تركوا من آثار ، ويكشف فى أثناء ذلك بعض أسرار الفن ، ثم ينزع بعد ذلك نزعته الخاصة التى تطبع بطابع شخصيته ولكن فى حدود الأصول الفنية العامة ، أرأيت أن المجددين من الشعراء والنقاد استطاعوا أن ينفصلوا عن القديم ويستأنفوا جهوداً طريفة فى كل شىء ؟ كلا ، ألا إن الأدب كغيره من الفنون يتكىء على الماضى ويتعلق بالآتى .

(٥) وآخر ما أشير إليه من هذه الصلات بين الأدب وسائر الفنون الجميلة إنما هو هذه الصلة الوثيقة بين الأدب والموسيقا . وإذا ذكرت الموسيقا فقد ذكرت قبلها أو معها فن الغناء ، فمن الأمور المقررة أن الإنسان تغنى أول الأمر عواطفه بأصوات مبهمة ، لا تفصح عن معان ، وإن كانت ألحانها قد صورت حماسته وأفراحه حينا ، ثم أتراحه وآلامه حيناً آخر . وبعد ذلك حلت الكلمات المنظومة والمنثورة محل هذه الأصوات ، فاختلط بذلك الفنان معاً : فن الغناء وفن الأدب ، وقد بقيا هكذا إلى الآن ، فالأدب يضع الأنشودة ذات الأفكار والعواطف ، ويسلمها إلى الغناء الذى يخضعها لألحان تلائم مافيها من المعانى والأغراض . فيسمع الناس من ذلك فنين ، فيطربون بالانغام الغنائية . ويعجبون بالنصوص الادبية . ولكن هذه الأنغام الغنائية لم تقتصر على الحناجر والأفواه بل انتقلت إلى هذه الأدوات الموسيقية المتخذة من القصب أو النحاس ، واستطاعت هذه الأدوات أن تفتن فى الألحان . ابتكاراً أو تنويعاً ، حتى استطاعت أن تسجل أصوات الطبيعة . وتمثل نزعات النفوس ، وتصور أعمق المعانى التاريخية والاجتماعية ، وكان منها نوع بسيط اتخذ الألحان الخالصة وسيلة للتعبير عن

الوجدان الإنسانى، تسمع إليه فتعرف أى شعور يؤدى ، وأية ناحية يتجه ، ولرجال الموسيقا بعد ذلك براعة فى تأليف الأدوار وتتويجها بالعنوانات كما هو معروف مشهور .

وهناك نوع آخر من الموسيقا مركب ، وهو الموسيقا الأدبية ، ليست ألحاناً خالصة ، وإنما هى ألحان لقطع أدبية ، تسمعها فتنتقل منها إلى ما وراءها من شعر أو نثر ، وذلك حين يضع الأديب قطعة للغناء الموسيقى . فيأخذها الملحن ، ويختار لها الألحان الملائمة ويسجلها فى المجسدة (النوته) . ثم تغنى؛ فتسمع الأدب والغناء . وأخيراً يعمد الموسيقار إلى ألحان هذه القطعة فيوقعها على العود أو القيثارة أو (البيانو) من غير غناء ، فتسمع الألحان فتعرف أنها دور كذا أو كذا وتقول : هذا نشيد مصر مثلا ، وقد تشترك – وأنت بعيد – مع الآلة العازفة وتسايرها بإنشادك . وفى هذه الحال نجد الأدب ذاب فى الموسيقا ، واستحال فناً تلحينياً . أو تجد الفنين قد اتحدا معاً ، فصارا أدباً موسيقياً أو موسيقا أدبية ، وتلك هى نهاية ما يصل فنا بفن آخر .

وأما إذا قصدت حيناً إلى دراسة هذه المجسدة ، فإنك واجد أن القطعة الأدبية قد وزعت كلماتها بين هذه الرموز الموسيقية ؛ لبيان ألحانها التوقيعية ، وإذا تعمقت قليلا فى الدرس علمت أن أوزان العروض هى بعينها أوزان الغناء والموسيقا ، مع اختلاف فى التفاصيل ، يقتضيه الخلاف بين طبيعتى الفنين ، مما أرجو التوفيق إلى دراسته فى فرصة ملائمة .

أما بعد فقد آن الأوان لأترك هذه المقدمات التى أمهد بها للقول في أصول النقد الأدبى ، ولعلى ملم بشىء من ذلك فى الأعداد التالية .

أحمد الشايب

فى الأمم السامية

بقلم محمد محمود جمعه

أستاذ فى الآداب ورفيق بالمجمع الملكى البريطانى للأجناس البشرية
وعضو الجمعية الملكية البريطانية للأبحاث الآسيوية والمدرس بمعهد
الدراسات الشرقية بجامعة لندن

١

تمهيد :

إن الموضوع الذى سأعالجه هنا على جدته وطرافته . لهو موضوع وعر المسالك ، مترامى الأطراف ، ذو نواح شتى ، ولصعوبة مدخله لم يطرقه إلا القليل من العلماء المستشرقين والقليل من الشعوبيين(١) على أن من أن تصدى له منهم لم يعالجه إلا من جهة خاصة ؛ ليقضى لبانة فى نفسه ، أو يقرر رأياً ارتضاه ، ولا أعلم أحداً من العلماء قد أفاض فيه إفاضة تنقع غلة الباحث المدقق ، وتشفى صدر المنقب المستفيض . ولا يزال موضوع الساميات فى مهده ، ولا تزال كنوز الساميين مطمورة فى رمال جزيرة العرب ، وبطاح فلسطين ، وسهول بابل ، على أن ذوى الهمة من علماء أوربا وأمريكا لم يدخروا وسعاً فى كشف ما تيسر من الآثار فى أنحاء جزيرة العرب ، فأوضحوا لنا بذلك كثيراً من خفايا التاريخ ، وكشفوا عن أسماء ملوك ودول ، لم يكن العرب ولا اليونان يعرفونها . ولا تزال البعوث العلمية المرسلة إلى بابل وفلسطين تكشف لنا كل يوم عن جديد فى بطون الكهوف وأرحامها ، وإنا نرجو أن يجىء ذلك اليوم الذى تقوم فيه البعوث المصرية بالبحث والتنقيب عن آثار المصريين والساميين فى جنوب جزيرة العرب . فلقد كان ذلك الجزء من الجزيرة معروفاً لدى المصريين قديماً ، وورد ذكره مراراً فى

(١) لفظ أطلقته العلماء على المشتغلين بعلم الشعوب (Ethnologisto) تمييزاً لهم من الشعوبية ، وهم فرقة نشأت فى صدر الإسلام تحتقر أمر العرب وتفضل العجم عليهم .

كتاباتهم وبين نقوشهم ، وكانوا يطلقون عليه اسم بلاد « بونط » وعرفته التوراة باسم « فوط » وعندى أن اللفظ المصرى هو الأصل لكلمة « الغوطة » .

وأراد المصريون ببلاد « بونط » أو « فوط » البلاد الواقعة على جانبى باب المندب . ولكيلا يتشعب بنا البحث ويسترسل الحديث ، رأيت أن أبدأ بالتعريف بالساميين فأقول :

خطأ التسمية

الساميون : كلمة أطلقها العلماء تسامحا على طائفة من الشعوب تتكلم لهجات متشابهة المعانى ، متجانسة المبانى ، تقطن الإقليم الذى يحد من الشمال ببحر الروم وجبال طوروس ، ومن الشرق بالخليج الفارسى وبحر عمان . ومن الجنوب بالمحيط الهندى ، ومن الغرب بالبحر الأحمر ويعرف هذا الإقليم « بالقوس الخصيب »(١) لأنه هلالى الشكل ، خصب التربة ، وافر الغنى .

ويراد بالشعوب السامية : العرب ، والأكاديون ، والبابليون ، والآشوريون ، والأموريون ، والكنعانيون ، أو الفنيقيون ، والآراميون ، والعبرانيون .

ويعد « إرمان » الشعب المصرى القديم من الشعوب السامية (٢) .

وليس لهذه التسمية مبرر علمى . وقد احتدم الجدل وحمى وطيسه بين الشعوبيين وفقهاء اللغة على صلاح هذه التسمية ، واحتج الأولون بأن اللغة شىء و الجنس شىء آخر ، فأمم أوربا مثلا تتكلم لغة آرية ولكنهم ليسوا من الآريين فى شىء ؛ إذ أن الجنس الآرى الأول الذى فرض لغته على أمم أوربا قد باد وانقرض ، ولا عهد لنا حتى بميزاته الجسمانية (٣) . وهو اعتراض وجيه قد أفحم علماء اللغة . وعلى

(١) « Fertile Crescent » وأول من أطلق عليه هذه التسمية هو الاستاذ برستد فى كتابه AncientTimes, P. 100 وقد انتقد هذه التسمية الاستاذ كلى Clay فى مجلة الجمعية الاسيوية الامريكيه I. A. O. S. جزء ٤٤ سنه ١٩٢٤ ص١٧٦-٢٠١

(٢) انظر كتابه « نحو اللغة المصرية » الطبعة الرابعة « Agyptische Grammatik

(٣) انظر كتاب الاستاذ « كين » « الانسان ، ماضيه وحاضره A. H. Keane, Man, Past and Present, 1899.

الرغم من اقتناعهم بخطأ هذه التسمية ، فقد احتفظوا بها ؛ لعدم صلاح غيرها على ما يزعمون .

وقد اقترحتُ فى جمع من العلماء ، أن تسمى اللغات السامية باللغات « العربية الآرامية » ، على حد قولنا اللغات « الهندية الجرمانية » . وهى تسمية أرى صلاح إطلاقها على تلك اللغات ؛ إذ أنها تضم بين دفتيها اللغة الآرامية ، وما يمت إليها بصلة ، من السريانة ، والكنعانية أو الفينيقية ، والتدمرية وغيرها ، ثم اللغة العربية ، وما تفرع من شعبيتها من البابلية والحبشية ، ثم ما بين ذلك من العبرية الفصحى والحديثة .

أول من وضع التسمية :

وأول من استعمل كلمة الساميين للدلالة على تلك الأمم ، هو العالم الألمانى « شلوتسر » فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقد اشتقها مما وجده مسطوراً فى التوراة فى الربع العاشر من سورة الخلق « سفر التكوين » .

وبعدئذ نهج العلماء نهجه ، واحتفظوا بهذه التسمية ، مع اعترافهم بخطئها .

وإن تعجب فعجب أن لم يتناول أحد من العلماء الكلمات الثلاث : « حاما وساما ويافث » بالنقد والتحليل ، ولعل الذى صرفهم عن ذلك ، اعتقادهم أنها أسماء ، وأن الأسماء لا تعلل . على أنا لا نرى ذلك ولا نذهب إليه ، وهاك رأينا ندلى به إليك .

حام :

قال صاحب اللسان : « وحام أحد أولاد نبى الله نوح عليه السلام ، وهو أبو السودان . ويقال : غلام حامىّ وعبد حامىّ »

وقد ورد ذكر هذه الكلمة فى التوراة فى عدة مواضع [1] ، على أنه اسم

(١) انظر الآية ٢٢ من الربع التاسع من سورة الخلق (سفر التكوين) ثم الآيات ٦ ، ٢٠ من الربع العاشر من السورة نفسها .

لأحد أبناء نوح الذى تحدرت منه قبائل «كوش ومصرايم وقوط وكنعان»[1]

وقد تبع مؤرخو العرب علماء اليهود، فى سرد حكاية التوراة، إلا صاحب كتاب التيجان[2]، فقد انفرد برواية رواها عن أحد علماء يهود اليمن، الذين أسلموا فى صدر الإسلام، وإليك ما قاله صاحب التيجان: «ولَد حام: كوشا وماريع، فولد كوش الحبشة، وولد لماريع بن حام، كنعان بن ماريع بن حام فولد بربر بن ماريع، ونوبة بن ماريع وولد حام، قبط بن حام، وسند بن حام وقول بن حام، وعامور بن حام[3]».

فأنت ترى أن هذه الرواية، تختلف اختلافا بينا عما جاء فى التوراة خاصاً بأولاد حام. على أني لا أريد أن أتعرض هنا الآن لرواية التوراة، ومناقشة جدول الأنساب المذكور فيها، فموعدنا بذلك مقال آخر، نستوعب فيه قصة نوح وحديث الطوفان، وإنما جل غرضى أن أناقش هنا كلمة «حام» وأصل اشتقاقها، وما تدل عليه فى فقه اللغة، ولأعد إلى ذلك فأقول:

إن العبرانيين أطلقوا، فيما بعد، لفظ حام على مصر خاصة، كما يتضح ذلك من التوراة نفسها، فقد جاءت الكلمة فى الزبور فى أربع آيات وإليك ترجمتها:

(١) وأهلك كل بكور مصر، أولى القوة فى خيام حام.

(٢) وباء اسرائيل إلى مصر، وسكن يعقوب أرض حام.

(٣) وأرَوْهُمْ بينات آياته وعجائبه بأرض حام.

(٤) عجائب بارض حام.

فأنت ترى أن كلمة (مصر) وكلمة (حم أو حام) لفظان مترادفان.

بقى علينا أن نرى من أين جاءت الكلمة إلى العبرية؟ وكيف آلت للدلالة

---

(١) انظر الآية ٦ من الربع العاشر من سورة الخلق

(٢) انظر كتاب التيجان فى ملوك حمير لعبد الملك بن هشام ـ مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٢٩٠١ وقد طبع ايضافى حيدر اباد الدكن

(٣) قارن هذا بما ورد فى سورة الخلق (سفر التكوين)

على أرض مصر ؟ وعندى أيها القارىء الكريم ، أن كلمة حام ليست عبرية الأصل ، وإنما هى مأخوذة من لفظ مصرى قديم معناه السواد . فلقد كان المصريون القدماء يطلقون على بلادهم اسم «حمة» والتاء فيها للتأنيث ، ومعناها : أرض السواد ؛ وذلك لوفرة غرينها ، وخصب أرضها ، ومنها اشتق العرب « الحمأة والحمأ » وهو « الطين الأسود المنتن » [1] ثم أضاف المصريون ياء النسب إلى الكلمة فصارت « حمى » ومعناها مصرى ، وقد وردت الكلمتان فى اللغة القبطية ، وأخذ الإغريق الكلمة المصرية بلفظها ونطقوها (خيميا) أو (كيميا) وأطلقوها على مصر نفسها ، وعلى العِلم المصرى . ثم جاء العرب ، فأخذوا اللفظ الإغريقى وأدخلوا عليه لام التعريف ، وأطلقوه على العلم المعروف .

ومن هذا ترى أن كلمة «الكيمياء» كلمة مصرية قديمة . معناها «العِلم المصرى» وذلك لاشتهار المصريين قديما بعلم التحنيط ، وخلط العقاقير .

ومما قدمت من الأدلة ، يتبين لك جلياً ما يأتى :

(١) أن لفظ حام ليس عبرى الأصل ، وإنما هو لفظ مصرى قديم ، نقله العبرانيون ، بلفظه ومعناه ، إلى لغتهم .

(٢) أن لفظ حام ليس علماً لشخص بذاته ، وإنما هو اسم أريد به سكان السواد على وجه العموم .

سام :

أما سام : فمشتقة من السمو فى الارتفاع ، أو من السمة والعلامة .

قال صاحب اللسان : « السمو : الارتفاع والعلو تقول : سموت وسميّت مثل علوت وعليت . . . والسماة الصيادون صفة غالبة ، والسماة جمع سام . والسامى هو الذى يلبس جوربى شعر ، ويعدو خلف الصيد نصف النهار ، قال الشاعر :

أتت سدرة من سدر حرمل فابتنت به بيتها فلا تحاذر سامياً

قال ابن سيدة : والسماة الصيادون المتجوربون ، واحدهم سام ، وسما القوم : خرجوا للصيد .

---

(١) انظر اللسان .

وقد جاء الأصل فى اللغة المصرية القديمة فى مادة (س م ى) ما معناه العلو والارتفاع و(سِمِيت) ومعناه الجبل ومن ذلك (السَّمت) وهو ما فوق الرأس؛ لعلوه وارتفاعه.

وقد أطلق العبرانيون كلمة سام على أكبر أبناء نوح، الذى تحدرت منه الشعوب السامية.

وعندى، أنها كحام، لا تدل على شخص بذاته، بل يراد بها سكان السماوة وأهل العالية، كما يراد بحام سكان الأودية، وأهل السواد.

يافثُ :

أما يافث: فلم أعثر لها على تفسير مقنع، ويرى فقهاء اللغة العبرية أن (يفِث = يافث) مشتقة من كلمة معناها: البسطة والامتداد، أو من كلمة معناها: النصاعة والجمال، وتطلقها التوراة بخاصة على أربعة عشر شعباً، يسكن معظمهم آسيا الصغرى، وما إلى شمالها.

ولعلها — كسابقتيها — يراد بها فى الأصل سكان السهول، وأهل الصحراء ولعلها تمت بصلة للأصل المصرى القديم.

ومن هذا، نستخلص أن تقسيم التوراة للأجناس البشرية، ليس كما يقول العلماء تقسيما سياسيا؛ من حيث السياسة والاجتماع، وليس تقسيما شعبيا؛ من حيث الجنس، والمميزات الجسمية. بل هو تقسيم عمرانى جغرافى؛ من حيث المهن والحرف، التى اشتغل بها الإنسان قديما، فقد أجمع علماء العمران على أن الإنسان فى حياته الأولى، قد مر فى أطوار ثلاثة مختلفة: طور الصيد والقنص، وطور الرعى وطلب الكلأ، وطور الزراعة وفلح الأرض. ويخيل إلى أن الكلمات الثلاث: (ساما وحاما ويافث) هى الألفاظ التى استعملها الساميون الأول؛ للدلالة على تلك المهن، وعلى المشتغلين بها، وأنها من أقدم الأصول السامية، التى تحدرت إلينا، بعد أن تغيرت معانيها، على كر الغداة ومر العشى، إلى مدلولاتها التى تدل عليها الآن.

ولنَعُدْ ذلك إلى مهد الساميين وموعدنا فى العدد التالى إن شاء الله؟

محمد محمود جمعة

أثر الانقلاب السياسى والاجتماعى فى اللغة
منذ سنة ١٩١٩

بقلم عبد الرزاق ابراهيم حميدة
عضو البعثة لدراسة اللغة الانجليزية بجامعة لندن

مقدمة :

إن للثورات أثراً فى تاريخ اللغات وآدابها غير منكور . فقد كانت ثورة مصطفى كمال ، واستيلاؤه على زمام الأمور فى تركيا ، سبباً فى أن يتجه الأدب التركى الإسلامى السلطانى إلى ناحية جديدة ، أوحت بها الثورة الجديدة ، وفرضتها على الأدباء . وكانت سطوة هتلر فى ألمانيا . وتسلمه مقاليد الحكم ، عاملا فى توجيه الأدب الألمانى الداخلى فى طريق الفكرة النازية ، والأدب الألمانى الخارجى توجيهاً آخر . وكانت إبادة الأسرة القيصرية وحكومتها ونظامها فى روسيا ، على يد ستالين ورفاقه ، وبناء حكيم شيوعى جديد ـ أقوى عامل فى تغيير الأدب الروسى جملة وتفصيلا .

وقد يكون بعض هذه التغيرات حتما تفرضه السلطات ، ويكون بعضها طبيعياً توحى به التطورات الاجتماعية ، والعلمية ، والصناعية ، فتجىء الآثار الأدبية نتيجة لهذه التغيرات والتطورات ، معبرة أصدق تعبير عن زمنها ، ومكانها ، والأمة التى حاطتها برعايتها ؛ إلا فى أحوال نادرة وظروف شاذة .

وهكذا كانت ثورتنا الوطنية الحديثة ذات يد بيضاء على اللغة ، وكان فضلها عندها مشكوراً .

جاءت هذه الثورة فأيقظت البلاد من سباتها ، وبعثتها من موتها ، وهب الناس من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، يطلبون استرداد حقوقهم المغصوبة ،

واسترجاع حرياتهم المسلوبة ، يستعذبون الموت فى سبيل الغاية ، لا يرهبون وعيداً ولا تنكيلا ، ولا يخشون قوة ولا بطشا .

(١) الخطابة

وما كان أحوج الزعماء وقادةَ الأمة إلى البيان ، وما كان أوسعَ مجال القول أمامهم : فهم طلاب حق ، وأرباب بلاغة ، فنشطت الألسنة من عقالها ، تثير نار الحمية ، وتتلو أناشيد الحرية ، وتدافعت الجماهير إلى منتديات السياسة ؛ تستجيب لصيحة الوطن ، وتتبع رسل الاستقلال ، وتنوء إلى دعاة التحرر من ذل الأصفاد ، وربقة الاستعباد .

وكان للخطابة المركز الأول ؛ لمالها من الفضل فى توجيه الأفكار ، وتركيز المبادىء وتثبيت العقائد ، والدعاية إلى السعى نحو الغاية المنشودة ؛ فعلا شأنها ، وراجت سوقها ، وشهدت منابر السياسة من سعد وأشياعه ، أو منافسيه ، خطباء يهزون أوتار القلوب ، ويوقدون نيران الحماسة ، ويسحرون العقول ، فتتحرك الجموع الزاخرة طوع إشارتهم ، وتقابل الموت بصدور منشرحة ، وثغور باسمة ؛ لما استقر فى نفوس هذه الجموع ، من سحر الخطابة ، وقدسية الموضوع الذى دارت حوله .

ولم يكن زعماء الأمة وحدهم ملوك المنابر ومحتكريها ، بل كان هناك الطلبة النجباء ، زعماء المدارس ، وقادة الشباب ؛ ممن تشبعوا بأفكار حديثة ، وقدروا ما للحرية من حلاوة وجمال ، فراحوا يتغنون بجمالها ، ويهتفون باسمها ، ويرددون على أسماع إخوانهم عذب أناشيدها ، وكم انتهت بهم تلك الصبابة إلى أعماق السجون ، أو أجواف القبور ، وبقيت لنا منهم بقية مباركة ، تحتل الصفوف الأولى فى مقدمة أبطال الوطنية .

ومما أذكره ، أنه كان لكل مدرسة خطيب ، يتحدث باسمها يوم الزحف ، ويعلن صوتها عند الشدة ، فكان لمدرسة الطب الدكتور حلمى الجيار ، ولمدرسة القضاء الشرعى ، الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلى ، والأستاذ الجزيرى . وكان لمدرسة دار العلوم الأستاذ مهدى علام ، وكان لمدرسة الهندسة الأستاذ

عبد المجيد بدر ، الذى كان يقلد سعدا (رحمه الله) فى الصوت والعبارات ، وكان للحقوق الأستاذ حسن يس والأستاذ إبراهيم عبد الهادى ، وكان للأزهر أبطاله وأشباله ، وكان لكل مدرسة أخرى خطيب أو خطباء .

ثم أثمر الجهاد عن دستور وبرلمان ، وتقدم المرشحون إلى أبناء وطنهم ، يرجون شرف النيابة عن الأمة ، وكانت الخطابة عدتهم وعتادهم ، يعدون بما سيجلبون من مغنم لمنتخبيهم ، ويفخرون بمبادئهم وحزبهم ، وكانت أيام الانتخابات أسواقا حافلة بالخطباء وأدعياء الخطابة ، وكان لهذا كله أثره القوى فى إيجاد روح الخطابة ، وتقوية لغتها بين الناس .

غير أن موضوعها كان سياسيا محضا ، وكانت أساليبها متشابهة ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ؛ إذ تغيرت الأفكار ، واتجهت إلى الناحية الاجتماعية ، التى زادت عنايتنا بها فى الأيام التى تلت الثورة ، فتألفت جماعات خلقية ، ودينية ، وعلمية ، كان تبادل الآراء فيها مبنيا على الخطابة ، وإلقاء المحاضرات أو المناظرات . فأفاد ذلك فائدة كبرى ،فى تنوع أسلوب الخطابة ؛ لتنوع الموضوعات . غير أنها كانت تبتدىء جميعها بتوجيه الخطاب إلى السيدات أوّلا ، والسادة من بعدهن ؛ جريا على سنة سعد (رحمه الله) فى خطبه .

وحتى خطب المساجد : أدركها النفير وبَلَغَتْهَا دعوة التجديد ، وحاول بعض المصلحين أن يرقى بها عن الدواوين المحفوظة من العهد التركى السقيم ، ذات السجع البارد ، والعبارات السمجة ، فأنشىء القسم الخاص بالوعظ والإرشاد فى الأزهر ، ومما يدعو إلى السرور أن النتيجة التى ظهرت إلى الآن تبشر بنجاح لا بأس به ؛ فقد تناولت الخطابة فى المساجد شيئا من الحياة العامة ، وتحدثت إلى الناس عن التعاون ، وحثتهم على التآخى ، وبينت لهم ضرر المخدرات ، وغير ذلك ؛ حتى اضطر كثير من محبى النوم فى أثناء خطبة الجمعة أن يستيقظوا وينتبهوا لذلك الداعى الجديد ، الذى يحدثهم فيما يفعلون ، بما يعقلون .

(٢) الصحافة

سارت الصحافة مع الخطابة فى تيار واحد ، وآزرت كل واحدة منهما صاحبتها ، فى النهوض باللغة نهوضاً عظيما ، وتشابهتا فى الموضوع الذى تتحدثان عنه ، وهو الاستقلال وقصته ، وفسحت الصحف فى صدرها للخطب . فأذاعتها فى الناس ، ونشرتها بين من لم يستمع إليها ، لبعد الشقة . أو لصعوبة الوصول إلى النادى ، الذى ألقيت فيه الخطبة ، واتسع صدرها ، شيئاً أكثر ، للاقتباسات التى يرسلها المكاتبون من الخارج بآراء الصحف الأجنبية عنا ، وأقوال كتابها فى أمر بلدنا ، وبما يجرى فى الداخل من حوادث غير عادية ، يحرص جمهور القراء على الوقوف عليها .

ولما تباينت وجهات النظر ، واختلف الأحزاب ، تحولت الجرائد عن المقصد الأسمى ، إلى أن أصبحت ميدان هجاء وطعن . وتراشق السادة وأنصاف السادة ، بالقول الجارح ، والقذف المر ، مما لا يمت إلى السياسة بسبب ، وأسرف الكتاب فى العبارات اللاذعة أو المكشوفة ، وتولت الحكم وزارات الأحزاب ، فكانت هدفا للنقد المر من الصحف المعارضة ، وكثر عدد الصحف ، وكثر كتابها كذلك ؛ ينصرون حزبا على حزب ، ويتشيعون لمبدأ دون آخر ؛ إما عن عقيدة وإيمان ، وإما عن رغبة فى الشهرة وجر المغانم . ولكن ذلك كله لم يمنع من أن تقوى لغة الصحافة ، ولغة كتابها ، إذا ما كتبوا فى غير السياسة ، وسنحت للقراء فرصة لمجاراة هذا التقدم والنهوض ؛ طواعية ، ومن طريق غير مقصود ؛ إذ كان تشيع الأشخاص للأحزاب وأفعالهم ، دافعا إلى قراءة الصحف التى يوالونها ، وأن يكثروا من قراءة هذه الصحف ، وينوعوا فيها ، إن كان للحزب صحف مختلفة ، فتسرى إلى نفوسهم روح اللغة وعباراتها . مع المبدأ الذى تذيعه الصحيفة وتؤيده ، ويظهر أثر ذلك فى لغتهم وكتاباتهم . ولقد رأيت رجلا فى بورسعيد ، يكاد يكون أمياً ، غير أنه يملى خطابا أو شكوى بلغة متينة ، وعبارات قوية فى أسلوب منسجم . وذلك لأن الجرائد كانت تقرأ له يومياً ، من أول الجريدة إلى آخرها ، فكانت النتيجة أن زادت صلته باللغة ، وقويت معرفته من حيث لا يقصد .

والذى يسرنا أعظم السرور، أن لغة هذه الجرائد، قد بلغت درجة سامية فى أسلوبها، ومزجت بين الفكرة الحديثة، والعبارات العربية الخالصة، وأفادت كثيراً من القراء، الذين يعرفون اللغات الأوربية فى الترجمة ـ وإن كانت حرفية أحياناً ـ وأمدتهم أحياناً أخرى بالعبارات الفصيحة، التى لا تقل فى جمالها عن العبارات الأوربية التى تقابلها، وقد تفوقها فى حسن السبك، ودقة الأداء.

وعند ما كسدت صحافة بعض الأحزاب ـ لكساد مبدئها ـ اضطرت هذه الصحف، أن تخصص بعض صفحاتها للأدب الخالص، ولتاريخه أيضاً، لتملأ فراغاً فى صفحاتها، ولتحبب إلى الناس قراءتها، لغير الغرض السياسى، ثم تطورت الفكرة، وأنشأ بعض أصحاب الجرائد اليومية مجلات أسبوعية، جعلوها وقفاً على الأدب والاجتماع وحدهما: كالسياسة الأسبوعية، والبلاغ الأسبوعى، فأتاح ذلك لكثير من الناشئين فى الأدب، أن يجربوا حظهم فى الكتابة، والشعر، والترجمة، وعنى بعضهم بالقصص المصرية، والتعبير عن الحياة التى تتحدث من كل جانب إلى عواطفه وإحساسه، وكان لهذا أثره فى تطور موضوع الأدب تطوراً خطيراً.

والمجلات المدرسية وكثرتها، وتشجيعها للتلاميذ على التفكير والكتابة، وعناية المدارس بأمر هذه المجلات، ولغتها، وموضوعاتها ـ لم تكن بأقل أثرا من المجلات الشهرية كالهلال والمقتطف. ولا من المجلات العلمية التى كثر عددها فى الأيام الأخيرة، حتى أصبح لكل طائفة مجلة خاصة تعنى بموضوع خاص أكثر من عنايتها بأى موضوع، كمجلة الحقوق، والجامعة، ودار العلوم، والطب، والأزهر.

وهناك نوع من المجلات زاد انتشاره ورواجه فى الأيام الحديثة رواجا غريبا، ذلك هو المجلات الأسبوعية، التى تميل إلى الدعابة والفكاهة، وتؤثرهما على اللغة والقواعد، ولكنها تؤثر العامى الظريف، الحسن الوقع فى نفوس القراء، وتخلطه بالعربى الفصيح أحيانا، حتى لقد يغلب العربى على غيره ــ كان لهذه المجلات أثر قوى فى تهذيب لغة الحديث ورقيها، وتقاربها فى كثير من النواحى.

وكان فى بعض كتاب الصحف والمجلات تمرد، وحماسة، وإقذاع فى النقد

والطعن والتحدى للقانون . فاضطرت الحكومات أن تحد من حرياتهم ، وأن تحاول كَمّ أفواههم ، ففرضت على الصحف رقابة شديدة ، وسنت لها القوانين القاسية ، وأنزلت بها العقوبات الرادعة ، فلم يقف الكتاب أمام ذلك مكتوفى الأيدى ، أو معقودى الألسنة ؛ فنى أسلوب الغمز فرصة للإفلات من العقاب ، وفى التلميح ما يغنى عن التصريح ، ورب إشارة خير من عبارة . حتى لترى فى لغة الصحف المعارضة فى أيام الحكم الديكتاتورى قولين أو أقوالا .

(٣) القضايا السياسية

ظهرت هذه القضايا فى الأفق المصرى ظهورا غير عادى بعد الثورة ، وشغلت أذهان الناس أزمانا طويلة ، وتصدى للدفاع عن المتهمين نفر من كبار المحامين ، الذين اعتمدوا على البلاغة واللسن ، كما اعتمدوا على تفسير مواد القانون ونصوصه ، وتقدموا للدفاع ، وهم يؤمنون بـ « إن من البيان لسحرا » . وخصصوا بعض وقتهم لزخرفة لغة الدفاع ، وحسن رصفها ، واستعانت النيابة من جانبها بالأسلوب العالى ؛ لتشرح فلسفة العقوبات ، ولتحلل نفسيات المجرمين ، وتبين ما يصلح لها من دواء قد يكون الإعدام أحيانا ، وشغلت صحفنا اليومية والأسبوعية بهذه القضايا شهورا ، وأقبل الناس على تلك الصحف إقبالا عظيما ، وترقبوا ظهورها صباحا ومساء بشوق ولهفة ، فارتفعت لغتهم من حيث لا يقصدون ، وعلا مستوى الكتابة علوا محسوسا . وبخاصة فى دوائر القضاء والمحاماة .

ومن هذه القضايا : قضية السردار . وإخطاب ، وحوادث الإسكندرية ، وقضايا العنابر ، والترسانة والخطابات . ومن أبطال الدفاع فيها الأساتذة : النحاس ، ومكرم ، والغرابلى ، والمرحوم أحمد لطفى ، وصبرى أبو علم ، ولطفى جمعة ، وغيرهم ممن كان لهم فى هذه القضايا اسم مجيد .

(٤) الأدب النسائى

لم يقصر أمهاتنا وأخواتنا فى أيام الثورة عن الآباء والإخوة . فغادرن الخدور إلى ميادين الجهاد ، وبدون فى طليعة المجاهدين ، وأدين الواجب كما ينبغى

فى تضميد الجراح ، ومواساة المصاب ، وبكاء الشهداء ، وبدت لهن آفاق النهضة منيرة ؛ فتقدمن إلى نواحى النشاط الاجتماعى المختلفة ، ينشئن الجماعات النسوية ، ويصدرن الصحف والمجلات الخاصة بشئونهن ، وعنين بإقامة الاحتفالات : تلقى فيها الخطب الدائرة حول نهضتهن ، ووسائل تشجيعها ، وفتحت أمامهن أبواب المدارس على اختلاف درجاتها ، عندما ازدحمن على أبوابها ؛ فرارا من ظلمة البيوت إلى نور العلم ، ورأين فى المقاعد الخشبية فى حجرات التعليم ، راحة ، ورفاهية ، تفضل ما فى الحشايا والأرائك من نعومة ولين ، وطالبن بحقوقهن المهضومة ـ كما يدعين ـ واقترن قولهن بالعمل ، وأضفن إلى الأدب عنصرا جديدا ، قويا ، ممتازا بأنوثته ، ورقته ،وخفة روحه ، يتحدث عن « النصف الأفضل » فى الأمة حديث العليم ، ويمثله تمثيلا صادقا ، لا أثر فيه للخيال ولا للاختراع . وكان منهن الأديبات الكاتبات ، والشاعرات ، والخطيبات : كالسيدة هدى شعراوى ، والسيدة استر فهمى ويصا ، والحاجة لبيبة أحمد ، صاحبة مجلة النهضة النسائية ، والسيدة منيرة ثابت صاحبة جريدة « الأمل » باللغة العربية ، و L'Espoir بالفرنسية ، وابنة الشاطىء وابنة الريف ،وغيرهن كثيرات ، تزدان بهن مجلاتنا وصحفنا ، كما تزدان بهن الخدور

(٥) موت احدى اللغات المنافسة

زالت سيادة الترك ، وذهبت تبعيتنا للآستانة غير مأسوف عليها ، واختفت اللغة التركية من المحيط المصرى اختفاء ، يكاد يكون تاما ، من لغتنا الأدبية ، ومن اللغة العادية ، إلى حد بعيد . وحلت كلمة « القسم » محل « القره قول » ، و « المطعم » محل « اليمكخانة » ، و « المدرس » بدلا من « الخوجة » ، والصف « بدلا » من « الطابور » ، وحلت اللغة العربية أو الفرنسية محل هذه اللغة الدائرة ، فى كثير من الأحيان مثل Tant « مكان تيزه » و « Meman » و « Papa » فى لغة الأطفال أما « نينه » فقد ماتت عليها رحمة الله . وإن كانت « آبله » ما زالت حية ترزق ، بين تلميذات المدارس على الخصوص ، ولا أدرى ماذا يكون من سيداتى البنات إذا اقترحت عليهن أن ينادين المدرسات الفضليات بلفظة « الأخوة » ، كما يتنادين هن أنفسهن بها .

(٦) الألفاظ الأوربية :

١ — الفرنسية : لا نستطيع أن ننكر تقدم اللغات الأوربية ، وسعة صدرها فى الناحية العلمية وناحية الطراز « المودة » والزينة ، وكثرة إنتاجها فى هذه النواحى ، واقتباسنا نحن منها العلوم والمواد مع أسمائها ؛ مما له أثر ظاهر فى كتبنا ، ولغة سيداتنا ، غير أن الخطر فى الأولى كاد يزول ؛ بارتقاء لغة العلوم ، ووضع القواميس الخاصة بالمصطلحات العلمية : كقاموس الدكتور شرف . والفريق اسكندر باشا المعلوف فى كتابه عن « الحيوان » أما الناحية الثانية ، ناحية الطغيان الفرنسى على لغتنا ، فى الملابس ، وأدوات الزينة ، وألفاظ التجمل والتحية ، فهى كثيرة مخيفة . إذ أننا نفضلها . ولو كان عندنا ما يعد لها من الألفاظ العربية ، وخذ مثلا لما نستعمله من الألفاظ الأجنبية : الكنبة « Le Canapé » والشيزلونج « La Chaise longue » والفوتيل « Le fauteuil » والصالة « La salle » والصالون « Le salon » والموبيليا « Le meuble » وللسيدات : الكاب « La Cape » والمانتو « Le manteau » والبريه « La bèret » والبونيه « Le bonnet » والشمزته « La chemisette » والسوتيان « Le souten - gorge » والكورسيه « Le corset » والشال « Le châle » والإشارب « L'écharpe » وعلى الشاطىء : البلاج « La palge » والمايوه « Le maillot » والكابين « La capine » وللرجال : الكرفته « La crofate » والبابيون « Le ppapillon » والفراك « La frac » والردنجوت « La redingote » وهناك البونجور « Bonjour » والبونسوار « Bonsoir » والأريفوار « Ou revoir » والسواريه « La soirée » والماتينيه « La matinée » وغير هذه الكلمات مئات أخر ،

أما ما أخذناه من اللغة الإنجليزية فسوف أتحدث عنه في النقطة القادمة .

ب - الإنجليزية : كانت اللغة الإنجليزية ، لغة التدريس فى مدارس الحكومة الابتدائية والثانوية إلى أوائل القرن الحالى ، ولكن هذا النظام قد زال ، وكاد أثره يزول إذ أصبحت اللغة العربية لغة التدريس فى مدارس الحكومة ، والمدارس التى تسير على منهاجها ، وفى الجامعة فى بعض السنوات أو بعض العلوم ، واستغنينا بالترجمة عن هذه اللغة الدخيلة ، وكادت لغتنا تبلغ الغاية فى سد الحاجة ، غير أن تأثير اللغة الإنجليزية قد عاد إلى الظهور من جديد ، من طريق (السينما) فقد كانت هذه صامتة إلى ثمانى سنوات خلت . و(السينما) ترعاها أمريكا وتؤوى أغلب شركاتها وممثليها ، ومعظم (الأفلام) إنجليزى . وجاءت هذه (الأفلام) إلى مصر - بعد أن نطقت السينما - فزاحمت لغتها الإنجليزية لغة الفرنسيين . واضطر كثير من بنينا وبناتنا أن يقبلوا على دراسة هذه اللغة وينصروها على الفرنسية ، ليفهموا معشوقيهم من الممثلين والممثلات ، ويتمتعوا بأغانى جريس مور ، وجريس فيلد ، وجنجر ردجر ، وكان من أثر ذلك أن زاد الدخيل الإنجليزى فى لغة الحديث عندنا وردد الشبان هذه الجمل للمزاح وللجد :

Here ! Here ! You said it ! Says you ! O. K.

وحيا بعضهم بعضا بـ Good morning أو Good afternoon أو Halloo عند اللقاء و Cheerio أو Good- bye عند التفرق .

وساعدت الألعاب الإنجليزية الأصل : كالتنس ، وكرة القدم ، والبنج بنج على انزلاق اللغة الإنجليزية إلى أماكن هذه الألعاب . غير أننى أتنازل وأقول : إن نهضتنا السينمائية ، التى مازالت فى أدوارها الأولى ، ستكون عظيمة الأثر فى اللغة ؛ من ناحية التأليف السينمائى ، ومن ناحية لغة الحديث وارتفاع مستواها ، ومن ناحية تأثيرها فى الخيال والتفكير على الجملة ، فشكرا لعبد الوهاب وأم كلثوم ويوسف وهبى وعزيزة أمير وغيرهم .

(٧) الألفاظ والجمل العربية الجديدة

أما أثر الثورة فى ألفاظنا وعباراتنا ، فهو أنها قصرت بعض الألفاظ على

بعض المعانى ، وأعطت بعض الألفاظ قوة لم تكن لها من قبل ، واتخذنا من جملنا أو ألفاظنا ، شعاراً لجماعاتنا ، أو صحفنا ، أو أحزابنا ، حتى صارت هذه الألفاظ أو الجمل مقترنة بأسماء قائليها أو الذين استعاروها وها كم شعار « الجهاد » مثلا :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد

« شوقى »

وشعار « البلاغ »

الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة « سعد زغلول »

ومن الألفاظ التي جاءت بها الثورة : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، والنفى ، والاعتقال ، والإضراب ، والمظاهرات ، والتجمهر وقوانينه ، والجنازات وإحياء فلان ، وإسقاط علان ، والدستور ، والانتخاب ، وحفلات التكريم والتأبين ، النيل لا يتجزأ ، أحرار فى بلادنا ، مصر للمصريين وغير ذلك مما لا يزال صداه يرن فى الآذان .

(٨) الأغانى والأناشيد

تطور الغناء منذ الثورة تطورا كبيراً ، وتعددت موضوعات الأناشيد ، ودخل فى هذه الحلبة بعض كبار الأدباء ، فارتقت اللغة على أيديهم فى هذه الناحية من الأدب ، وامتازت الأغانى بظهور أثر الثورة فيها عندما مات سعد (رحمه الله) إذ تغنى بمجده كبار المغنين ، ورثوه الرثاء الجيد ، وبكوه فأبكوا مئات المستمعين ، ونظمت المقطوعات الحماسية يتلوها الشبان فى المظاهرات وفى المحافل السياسية استفزازا للنفوس ، وإثارة للحماسة ، وشحذاً للعزائم ، وكان بعضها عاميا ، وبعضها عربياً ، وأقيمت مباريات بين الشعراء ، بوضع الأناشيد . ولنا الآن نشيد الملك ، ونشيد الكشافة ، ونشيد المرشدات ، والنشيد القومى ، وغيرها

وممن لهم الفضل الأكبر فى رفع مستوى الغناء والنهوض بمعانيه ولغته : الأستاذ أحمد رامى . أما صاحب الفضل الأكبر فهو شوقى (رحمه الله) إذ كان يرى أن يرتفع الجمهور إلى طبقة الشعراء ، لا أن ينزل الشعراء إلى مستوى

الجمهور ، وله من الأغانى العالية المعنى واللغة شيء كثير ، ما زال يتغنى به عبد الوهاب فيشجى آلاف المعجبين .

ومن أغانيه السامية المعنى البعيدة بعض البعد عن محيط الحب وزفراته :

« النيل نجاشى » ووصفه الجميل لليل « فى الليل لماخلِي ، إلامن الباكى »

و« على غصون البان عصفورتان » . و« بلبل حيران على الغصون » وكلها سامية المعنى جيدة التخيل إلى حد بعيد .

(٩) لغة الريف :

لم تكن لغة الريف بمعزل عن الجماعة ؛ فقد كان تغير الأحوال الاجتماعية والسياسية عاماً ، وكان صوته يتردد فى المدن والقرى على السواء ، وكانت غارة النهضة والمدنية قوية ، تخللت الحارات والأزقة فى الريف ، كما عمت المدن ، فبلغتهم دعوة الاستقلال ، وساهموا بنصيبهم فى قطع الطرق الحديدية ، وأسلاك التليفون ، واصطلى بعضهم نيران العذاب فى سجون السلطة والمحاكم العسكرية ، وسبقوا إلى الانتخابات ، وإلى المحافل السياسية ، التى أقامها نواب الدوائر ؛ ليستمعوا إلى خطبهم ووعودهم ، وزاد اتصالهم بالوسط العلمى ، فآثروا الطبيب على التعاويذ والرقى ، وكان للتعليم الإلزامى أثر كبير فى تنبيه أفكارهم وأذهانهم ، وللإصلاح الحكومى نفوذ قوى على مستوى حياتهم ومعيشتهم ، فكان من الطبيعى أن ينعكس كل هذا ويبدو فى لغتهم ونظرتهم إلى الحياة ـ وقد كان ـ فآثرت الأم الآن أن تدعو لابنها « بالعلم والشهادات الكبيرة والمراتب العالية ، ويبقى باشا و بيه » على الدعوة القديمة وهى : « يحفظ العلم والأُرْآن (القرآن) ويأخذ عمود فى الأزهر » وعرفوا المحامى بدلا من « الأبوكاتو » والمستشفى بدلا من « الاستبالية » و« البيه النائب » بدلا من « سفيه المحكمة » وعرفت الأم فى بيتها كراسة الرسم ، ودروس الأشغال اليدوية ، والمسطرة وكثيراً غيرها مع المصحف أو « الختمة » . ودرجت بينهم كلمات لم تتحدد معانيها عندهم ، وفسرها كل منهم كما تُملى عليه مصلحته وقوة فهمه ، كالوفدى ، والدستورى ، والانتخاب .

اتجاه الأدب جملة

إن أظهر ما نراه فى الأدب الحديث ، هو اتجاهه جملة نحو الجهة الوطنية والموضعية والثورة على التقليد والتقاليد ، وميله إلى مجاراة الأدب العربى فى كثير من نواحيه : فالكتاب ينشئون المقالات فى التغنى بجمال الريف، ومصيف رأس البر ، واستانلى باى ، والآثار فى الأقصر وأسوان ، والجيزة ، وسقارة . ويمتدحون الريفى الصابر القانع ، ويثنون على جهده وقناعته ، ويتقولون فى البنت الخفة الفلاحة ، ويحاول كثير من كتاب القصص الآن ، أن تكون قصصهم مصرية الموضوعات ، منتزعة من البيئة المصرية الصحيحة فى أسمائها وحوادثها ، وفكرتها .

ونرى الشعراء أنفسهم يسيرون فى نفس الطريق ، فيتركون التقليد فى البدء والختام . ويهجرون التغنى بالسيوف السمهرية ، والرماح الردينية ، إلى المدافع والغازات والقنابل ، ويعيشون فى مصر لمصر ، لا لجزيرة العرب منذ أكثر من ألف عام ، فيتغنون بمحاسن مصر ويشكون ما أصابها من محن ، ويشيدون بمجدها وتاريخها القديم ، وينصرفون إلى ناحية لم تكن تعرفها من قبل ، وهى محاولة القصص الشعرى ، حاوله الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، ونجح شوقى (رحمه الله) نجاحا كبيراً فى كليوباترا ، ونرجو أن ينجح رامى فى روايته التى سمعنا بها عن ابن زيدون .

وإنا لننتظر بعد ذلك أن تطرد النهضة ، وتعم كل نواحى الحياة المصرية ؛ لنرى للأدب مجالا أكثر سعة ، ومنبتاً أوفر خصباً ، ينمو فيه نمواً حسنا ، ويترك آثاراً خالدة ، مطبوعة بطابع هذا الجيل ، متميزة عن كل ما عداها من عصور الأدب المختلفة ، متوجه باسم صاحب الجلالة الملك الفاروق أدام الله بقاءه ذخراً للغة والدين .

عبد الرزاق ابراهيم حميدة

طـــرائف اللغـــة

بقلم مهدى أحمد خليل

المفتش بوزارة المعارف سابقا

٣

تضمين فعُل معنى فِعْل متعد

فَعل (بضم العين) لازم ومضارعه مضموم نحو سَفُهَ يسفُهُ، فإن ضمن معنى المتعدى كُسِر وقيل سَفِهِ زيدٌ رأيَه، والأصل سَفِه رأيُ زيد، لكن لما أسند الفعل إلى الشخص نصب ما كان فاعلا، ومثله رَشِدْت أمرَك وضِقت به ذَرْعا والأصل رشِدَ أمرُه، وضاق به ذرعه، ونصب على التمييز، لأنه معرفة فى معنى النكرة، وقيل على التشبيه بالمفعول به، وقيل على نزع الخافض، والأصل رَشِدْت فى أمرك. هذا قول بعض أئمة اللغة، وفى اللسان سفِهَ حلمَه ورأيَه ونفسه سفهاً وسَفَاها وسفاهة حمله على السَّفه، وقولهم سفه نفسَه وغَبِن رأيه، وبطِر عيشه وأَلِم بطنه، ووفِق أمرَه ورشِدَ أمرَه، كان الأصل سفهت نفسُ زيد ورشِد أمرُه. فلما حوّل الفعل إلى الرجل انتصب مابعده بوقوع الفعل عليه، لأنه صار فى معنى سفّه نفسَه، وقال الفراء: لما حُوِّل الفعل من النفس إلى صاحبها انتصب ما بعده على التمييز، ليدل على أن السفه فيه، وكان حكمه أن يكون سفِه زيد نفسا، لأن التمييز لايكون إلا نكرة، ولكنه ترك على إضافته، ونصب كنصب النكرة تشبيها بها. ومثله قولهم ضِقتُ به ذِرعا. وطِبت به نفساً، وقرِرت به عيناً. والمعنى ضاق ذرعى به الخ. وقال بعضهم سفه نفسَه أى فى نفسِه، وقال الزجاج فى سفِه نفسَه: سفِه متضمن معنى جهل، فعُدِّى كما عُدِّى.

كلمة تؤدى معنى كلمات

أنا غريرك من هذا الأمر : أى عالم به ، فمتى سألتنى عنه على غرة أخبرتك به من غير استعداد لذلك ولا روية فيه .

التَّلَحزُ : تحلب الفم من أكل رمانة أو إجّاصة شهوةً لذلك .

يقال لمن يُصاح به وهو ساكت يُرِى أنه نائم : قد أكْذَبَ .

التفسِرَةُ : البول يستدل به على المرض .

المقاومة : أن يحل دينك على رجل فتزيده فى الأجل ويزيدك فى الدّين .

المُستأخِذُ : المطأطىء رأسه من رمد ، أو وجع ، أو غيرهما .

البأدَلة : أن تحرك المرأة فى مشيها بآدلها أى لحم صدرها ، قال الشاعر :

قد كان فيما بيننا مشاهلة [1] ثم تولت وهى تمشى البأدلة

الهمهمة : تنويم المرأة الطفل بصوتها .

تفشى الحبر : كتب على كاغَد رقيق فتمشى فيه ، وهذا قرطاس يتفشى فيه الحبر .

قار : مشى على أطراف قدميه لئلا يسمع صوتهما .

الضغْثُ . معالجة شعر الرأس باليد عند الغسل بخاط بعضه ببعض ليدخل فيه الغَسول .

التّسبيد : ترك الادّهان والغسل .

خفِق الرجل : حرّك رأسه ، وهو ناعس يخفِق خفقاً ، وخفَقَ برأسه خفْقة أو خفقتين ، إذا أخذته سِنَة من النّعاس فمال برأسه دون سائر جسده .

الوَزْوَزةُ : مقاربة الخطو مع تحريك الجسد .

هو صديقُ عيْن : أى ما دمت تراه .

هَلُم أوَاضِعكَ الرأى : أى أطلعك على رأيى ، وتطلعنى على رأيك .

ركب رأسه : مضى على وجهه بدون قصد .

---

(١) المشاهلة : المشاتمة

مات حَتْفَ أنفِهِ . أى من غير ضرب ، ولا قتل ، ولا غرق ، ولا حرق . ومعناه أن يموت على فراشه ، فيتنفس حتى ينقضى رَمَقُهُ ، ولذا خص الأنف بالذكر دون غيره .

الإِوَزَّى : مِشيَةٌ فيها ترقص .

تخازَرَ : ضَيَّق جفنه ليُحدِّدَ النظر .

تَوَحَّشْ يا فلان : أخل مَعِدَتَكَ من الطعام لشرب الدواء .

عَجَفَ نفسه عن الطعام يَعْجِفُهَا عجفا : حبسها عنه ، وهو يشتهيه ؛ ليؤثر به جائعا ، أو ليشبع به مؤا كله ، وعجف نفسه على المريض : صبَّرها على التمريض والقيام به كأعجف بنفسه عليه .

خنفَتْ المرأة : ضربت صدرها بيدها .

رَجُلٌ أُذُن : مستمع لما يقال له ، قابل له ، وامرأة أُذُن : لا يثنى ولا يجمع؛ سمَّوه باسم العضو ، تهويلا وتشنيعاً .

ذَنَبٌ ألْوَى : معقوف خلفه كذنب العنز .

أرسلَهُ بِبُورِيِّهِ : إذا تُرِكَ ورأيه يفعل ما يشاء ولم يؤدَّب .

أصابَه حَجَرُ عَرَضٍ : وذلك إذا رُمِى بالحجر غيرُه عمداً فأصيب به خطأ .

اجثألَّ الطائرُ : نفش ريشه .

البأباء ، ترقيص المرأة ولدها .

قَفَّ شعره قفوفا : قام فزعا ، أو غضبا أو لهما .

جَرْجَرَ الماء : جَرَعَه متواتراً له صوت ، والتجرجر مثله .

اللوْص والملاوصة : النظر من خَلَل (فرجة) الباب ، من لاصه ولاوصه .

الفحفحة : تردد الصوت فى الحلق شبيه بالبُحة (غلظ فى الصوت وخشونة)

أحرارُ البقوُل : ما يؤكل منها بلا طبخ كالفُجل والجِرْجير والكراث .

دوَّمَ الطائر فى الهواء : حلَّق واستدار فى طيرانه ومنه اشتقت الدَّوَّامة .

أخذته قفقفة : أى رعدة ، يقال : قَفْقَف من البرد : إذا انضم وارتعد ، والقفقفة الرِّعدة من حُمَّى ، أو غضب ، ونحوهما ، وقد تَقَفْقَف وقَفْقَف ، وهى كذلك اضطراب الحَنَكَيْن واصطكاك الأسنان من البرد والحمى .

الجُذُوُّ : أن تقوم على أطراف الأصابع ، والجثوُّ على الركب .

استشرفَ الشيء : وضع يدَه على حاجبه ، كالذى يستظل من الشمس ، حتى يبصره ويستبينه .

تَنَمَّرَ : تمدد فى الصوت عند الوعيد .

شُفِعَتْ لى الأشباحُ : أى أرى الشخص شخصين لضعف بصرى وانتشاره .

سَفِهْتُ الشرابَ : أكثرتُ منه فلم أرْوَ .

كنايات :

فلان طلاَّع أنجُدٍ (جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض) ، وطلاَّع الثَّنَايا (جمع ثَنِيَّة وهى الجبل) : مُجَرِّبٌ للأمور يَؤُمُّ معاليها .

أسكت اللهُ نَأمته (صوته) : أماته .

رجل منتفخ الوريد : سيء الخلق .

رجع مُوَرَّدَ القذَال (مؤخر الرأس) : مصفوعا .

لوت الليالى كفَّه على العصا : هَرِم .

فلان يحمل الحطب الرطب : نمام .

دبت عليهم العقارب : مشت بينهم النمائم .

لا أخلى الله مكانه : دعاء بالبقاء

جاء ناشرا أذنيه : كناية عن الطمع .

ولاَّه دُبُرَه : « « الهزيمة .

خفيف الحاذ (الظهر) : كناية عن قلة العيال ، وثقيله ضده .

خفيف ذات اليدين : فقير قليل المال والحظ فى الدنيا .

يأكل لحم أخيه : يغتابه .

قرع لهذا الأمر ظُنْبُوبَه (الجهة الأمامية من الساق) : تهيأ له وجد فيه .

ضربنا على آذانهم : أنمناهم .

فلان مبسوط اليدين : كريم . ومقبوضهما بخيل .

يسوق الناس بعصاه : ينقادون له .

غَمْرَ الرداء والخلق : كثير المعروف ، سخى ،واسع الخلق .

إليك أشكو قلة الجُرْذان (الفيران) كناية عن الفقر .

طيب الإِزَار : كناية عن عفة الفرج ، لأنه عليه يعقد الأزار ، وتكنى العرب بطهارة الجيب عن القلب السالم من الغش ؛ لأن الجيب يكون على القلب

غُلَّت يدُه إلى عنقه : كناية عن التقتير ، وعدم الإنفاق .

اذهبى فلا أنْدَه سَرْبَكِ : كناية عن الطلاق ، وذلك طلاق الجاهلية ، ومعناه : اذهبى إلى أهلك ، فإنى لا أحفظ عليك مالك ، ولا أرُدُّ إبلك عن مذهبها والنده : الزجر ، وسَوْق الابل وجمعها ، والسَّرْب : الإبلُ .

واذهبْ فلا أنْدَه سَرْبك : أي أرد إبلك ، كناية عن عدم احتياجه إليه .

ألقى نفْسه بين سَمْعِ الأرض وبصرها : غرَّرَ بها ، وألقاها حيث لا يُدْرَى أين هو ، وسَمْعُ الأرض وبَصَرُها : طولُها وعرضها ، وقيل بين سمع أهل الأرض وبصرهم ، فحذف الأهل كقوله تعالى : واسأل القرية أى أهلها ، وقيل هو تمثيل أى لا يسمع كلامه ، ولا يبصرُه إلا الأرض ، ويقال لقيته بين سمع الأرضِ وبصرِها : أى بأرض ما بها أحد .

جعلت كلامه دَبْرَ (خَلفَ) أذنى : لم أصْغ إليه ولم أعبأ به .

أجْزرْته رَسَنه (حبلَه) : تركته يصنع ما يشاء .

هو عريضُ (واسع) البِطان (الحزام) : مثر كثير المال .

شَدوا الرحال : سافروا .

حَلّ رِبقته (الرِّبقة حبل فيه عدة عرا تربط به البهائم) : فرّج كربته .

شَقّ العصا : فارق الجماعة .

تقاذفا بما أبقى ابن بُقَيع (الكلب) أى بالجيفة : كناية عن التسابّ .

جعل أنفه فى قفاه : أعرض عن الحق ، وأقبل على الباطل .

رجل ما تَبِضُّ عينه : أى ما تسيل دموعه ، كناية على الصبر على المصيبة .

اليد العليا خير من اليد السفلى : المتصدق خير من المتصدق عليه .

هو خفيف الرداء : قليل العيال والدَّين .

سَبِطُ (الشعر السَّبْطُ : المسترسل الذى لاجعودة فيه) اليدين : كريم سخى.

قال صلى الله عليه وسلم لنسائه : أسرعكن لحوقا بى ، أطولكن يدا ؛ كنى بطول اليد عن العطاء والصدقة . يقال فلان طويل اليد ، وطويل الباع : إذا كان سمحا جوادا .

كنايات فى الموت :

فلان استوفى أكله . اصفرت أنامله . خلا مكانه . لك فيه العزاء . قضى نَحبَه (النَّحبُ : الوقت والمدة والنَّذر) : مات . استأثر الله به . شالت نعامته .

فلانة ما كشفت لأحد قناعها : كناية عن الطهارة .

فلانة طاهرة الذيل : عفيفة ، ومثله طاهرة الإزار . وطيبة معقد الإزار .

فلانة حمالة الحطب : نمامة .

كنايات فى طهارة الرجل

لم يغلق عليه مع امرأة باب . لم تنزل عليه مع امرأة كلّة (ناموسية) . لم يُرْخ عليه مع امرأة ستر .

كم لبست نعلك ؟ سؤال عن عدد مرات استطلاق البطن .

ختم فلان عليك بابه : أعرض عنك .
زهرت (أضاءت) بك زنادى أو نارى : قضيت حاجتى .
أرخى عمامته : أمِن وترفَّه .
فلان لا تُنْحَتُ أثْـلَتُه (الأثل شجر) : ليس به عيب ولا نقص .
نَحتَ أثْـلَة فلان : عابه .
قَلَّبَ الأمرَ ظهرا لبطن : أنعمَ تدبيره .
ما أقمت له وزنا : كناية عن الاطراح والإهمال .
قطع لسانه : أسكته بإحسانه .
حط رحله ، وألقى رحله : أقام .
هو يأكل عن ظهر يدى . أنفِقُ عليه .

مهدى أحمد خليل

الشيخ عبـــد المطلب

مدحـــه ورثاؤه [١]

بقلم عيسى محمود ناصر
المدرس بمدرسة الفيوم الابتدائية

٣

هذان الغرضان يرفعان شأن الممدوح ، و يعليان قدر المادح ، فإذا سمت فيهما معانى الشعر وارتق أسلوبه ؛ فجاء قصيد الشاعر صادق التعبير ، جيد العبارة ، فصيح اللفظ ، متين القافية ، حفظ له تاريخ الأدب صفحة مجيدة ، من صفحاته التى تتقطع دونها أعناق غيره ، خصوصاً إذا كان الممدوح ذا جاه وسلطان . وقد حفظ تاريخ الأدب العربى لبعض الشعراء مجداً مؤثلا ، وذكرا خالدا ، فاعتنى الرواة والقصاصون بشعره ، وحفظ على كر الدهور : كأبى الطيب المتنبى ، وأبى تمام ، والبحترى ، وشوقى ، ولكن شاعرنا (رحمه الله) لم يكن من أولئك الشعراء الذين يرتزقون فى أحضان العظماء والملوك ، فينال منهم الجاه والغنى والثروة الطائلة ، فيغرق فى المدح ، ويبالغ فى الوصف ، والتأبين ، وهو لو فعل هذا ومهدت له الطريق ، كما مهدت لغيره من الشعراء المحدثين : كشوقى ، وحافظ . لكان له شأن غير هذا الشأن ، ويرجع ذلك إلى نشأته ونعرته العربية ، واعتزازه بنفسه وقبيله ، وله فى ذلك غرر القصائد ، وخرائد المدح والثناء . ولقد أثبت أن أعذب الشعر أصدقه لا أكذبه ، فكان إذا جرى قلمه بالمديح ، قال بما تنطوى عليه نفسه ، من محبة وإجلال ، وما يراه فى ممدوحه من صفات الكمال ، ولو أريد على المدح وغُـلب عليه ، لظهر ذلك ضعيفاً ، بعيداً عن أن يمس عقيدته ورأيه .

---

(١) راجع صفحة ٦٩ من العدد الثالث للسنة الثانية

وقد أطنب أيما إطناب ، فى مدح إخوانه وأصدقائه ، خصوصاً صديقه الفاضل الجليل الشيخ عبد الرحمن قراعة ، كما خص قلمه بمن يرى لهم أثراً فى نهضة مصر والشرق ، واللغة ، والأدب والدين ، وها هوذا ديوانه بين يدى التاريخ الأدبى يسجل له تلك النفسية العالية ، وهذا الإباء العربى الصميم ، ولأضرب لك مثلا : لما عاد صاحب الدولة المغفور له عدلى يكن باشا من إنجلترا بالوفدالرسمى ، وكان بينه وبين صاحب الدولة الزعيم الجليل المغفور له سعد باشا زغلول اختلاف فى الرأى ، وكانت عقيدته السياسية تميل إلى جانب الزعيم الخالد ، وطلب منه أن يقول شعراً حينذاك ، لم يتعرض بما يمس كرامة الزعيم ، أو يهجن من سياسته أو يخذل من عزمه فقصيدته فى هذا كانت بين عاطفتين ، ولكنه خرج من هذا المأزق خروجا محموداً ، فاسمعه يقول :

يا ويلتا إن صح ما زعموا — أنا افترقنا فى الهوى شعباً
زعموا سفاهـا أن وحدتنا — أمست حديثا فى الورى كذبا
قالوا : السلام فقـام قائدنا — يزجى إلى حلباته النجبـا
ولرب سانحة إذا عرضت — صدق الكذوب وجد من لعبا
فدعوه إذ برموا بصاحبه — ظنوه يرضى ما أخوه أبى
صحت الشعوب فلن ترى عجما — ترضى الهوان ولن ترى عربا
إن الزمان بأهله دول — حق يجىء وباطل ذهبـا

ويقول فى مدح المغفور له عدلى يكن باشا ، وقد جاء كلامه فاترا ضعيفا :

ظنوا وزير النيل يخلبه — لمع السياسة بين من خلبا
عدلى أحق بنى البلاد بما — يعلى البلاد وأهلها رتبا
أوزير مصر على كرامتها — عد مكرما أديت ماوجبا

ومن هنا يظهر لنا أن التطبع غير الطبع ، ولهذا يؤخذ على الشعراء أن يطلب منهم المدح أو الرثاء فيجيبوا ، من غير أن يتركوا وأنفسهم فهذا الشعر ، كما يقول المغفور له حافظ بك إبراهيم ، شعر تجارى ، والحمد لله لم يكن لشاعرنا كثير من هذا النوع ، فلنغض الطرف عنه ، ولنضرب عن ذكره .

ولقد كان (رحمه الله) ذا ذوق حسن فى تفهم جيده، ومعرفة متكلفه من غيره - ذكرت مرة أمامه قصيدة شوقى بك فى المؤتمر الذى عقد فى بيت محمود باشا سليمان، وكان فيها مدح لعدلى باشا فأعجبه هذان البيتان:

عدلى الجليل ابن الجليل من الملا والماجد ابن الماجد المسماح
حلو السجية فى قناة مرة ثمل الشمائل فى وقار صاح

وقد كنا نخالفه فى البيت الأول ونعده من فضول القول، ولكنه ظهر لنا بعد أنه فى الذروة من المدح. وقد هنأ الخديو عباس باشا حلمى الثانى بعودته من الحج، وكانت هناك مباريات بين شاعر القصر، وشيخ الشعراء، وشاعر النيل، وشاعرنا الجليل، فقال يصفه محرما:

ترخى شعار المحرمين على سنا بدر تلألأ فى رقيق سحاب
فاصطف جند الله تحت هلاله يحدوك فى يمن وفى ترحاب
تدعو الإله وأنت أكبر خاضع نادى الإله فكان خير مجاب
فى حضرة تنسى الملوك ببابها شرف الجدود وعزة الأنساب

ثم مدح حضرة صاحب المعالى جعفر ولى باشا، وكان قد أسدى إليه مننا وهو وزير المعارف العام ١٩٢١، فقال بعد أن مهد بشىء من الغزل الرقيق، ولا يخفى ما فيه من جمال التورية والتضمين:

فذرنى وما ألقى من الوجد باسمها أعلل نفسى باللتيا وبالتى
عرفت لها صنع الكريم وإن لى شمائل حر بالوفاء تجلت
تكلفنى شكر القريض لجعفر على نعم عن مبلغ الشكر جلت
أنا الروض حياه «ولى» بديمة عليه بأسباب الحياة استهلت
«جزى الله عنا «جعفرا» حين أزلقت بنا نعلنا فى الواطئين فزلت»

وبعد فقد رثى فقيد العلم والمجد والوطنية المرحوم عاطف باشا بركات، والرثاء والمدح أخوان، كلاهما تعداد للمآثر، غير أنه فى الأول ممزوج بالعبرات والأسى، وفى الثانى ممزوج بالأمل الضاحك، والرجاء الباسم:

بكته البواكى يفتدين حياته لو اسطعن بالأحشاء والمهجات

بواك من الثغرين دوى رنينها إلى شعب النهرين فالبحرات
يناوحن إحدادا عليه مدارسا تغمدهن الثكل بالحسرات
معاهد علم بعده جف روضها وكان لهذا الروض خير سقاة

ومنها:

ومن يفن فى نشر المعارف يحي فى أساتذة رباهمُ وهداة
يقولون أودى ربها غير مخلف بنين على آثارها وبنات
رويدكم إن الحجا يلد الحجا ولا عقم إلا فى نهى وحصاة
وقد ينفد المسك الذكى معقبا سواطع من أرواحه عطرات

ورثى المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش، ثم أبنه بعد مضى عام على وفاته فقال فى ختام تأبينه:

نظموا خلالك فى القصيد وأقبلوا يتساجلون بلحنها أهزاجا
ما أنت فى الموتى ولكن رحلة جعلت لنفسك فى العلا معراجا

ومما قاله فى رثائه:

أين أخى؟ ويحى! إليه رمى رامى المنايا سهمه القاتلا
عاجله المقدار فى لمحة نرقب فيها بره عاجلا
فما الأسى؟ ما الصبر؟ ما الدمع؟ ما الـ ـوجد؟ لقد ولى أخى راحلا

والقصيدة كلها من السريع وهى متينة القافية، ولكنك تشعر بفرق بينها وبين سابقتها، ويظهر أن قلبه كان فيها كليلا، كما كان فى رثاء المغفور له سعد باشا زغلول، وذلك يرجع إلى أن الأسى إذا تملك عقل المرء وقلبه، غطى بيانه كما يحار الدمع فى الجفن من غير أن يتحدر، وكما يعقل اللسان الذرب فى اليوم العصيب، ألم تر إلى المرحوم سعد باشا فى تأبين المغفور له فتحى باشا زغلول كيف أرتج عليه فى موقف الشكر، فلم يتمالك غير عبرات تحدرت من عينيه، وهو ذلك المدره الفصيح الذى كانت تهتز له أعواد المنابر؟ إن أنس لا أنس يوم تأبين شيخ الشعراء اسماعيل باشا صبرى، فقد تساجل الأدباء والخطباء، وألقى شاعرنا دلوه فى الدلاء، وكانت هناك موافقة بين خاطره وخاطر أمير

الشعراء ، فجاءت قافيتهما واحدة . ولقد كانت فجيعة الشعر به عظيمة ، وخطبه فيه جسيما ، فلقد كان يجمع شملهم ، ويحد غرب ألسنتهم ، وكان ناديه مكان سمرهم وتنادرهم . وله أثر فى صقل شعر شاعر البادية ، وانتقاله من خشونة البدو إلى رقة الحضر أحيانا : فكثيرا ما عقد المجتمعات ، وأقام مجالس الشعر والأدب ، وكان ذا ذوق حسن ، « يحسُّ نُبُوَّ الوتر » ، كما يقول شاعر النيل ، ومن هذه المجالس : العلوية الكبرى لعبد المطلب ، والبكرية للمرحوم عبد الحليم المصرى ، والعمرية لحافظ ، والعثمانية لشوقى ؛ ومثل هذه القصائد التاريخية جديرة بالعناية والبحث ، فلقد أفرغ فيها كل منهم قصارى جهده . وإنها لتعيد إلى ذاكرتنا حلبات الأدب والشعر فى سوق عكاظ .

أما العلوية فكانت خير مرآة لشعر شاعرنا ، ظهرت فيها مواهبه ، فسار فيها على غرار حسن ، تناول تاريخ الإمام على فى رصانة أسلوب ، وانسجام معنى ، ومتانة عبارة ، وفصاحة لفظ ، ولقد اتهم فيها صاحبها بأنه شيعى حيث وافق خاطره عقيدتهم ، إذ أنهم يعتقدون أن الإمام فوق السحاب ، ولكنه كما أخبر عن نفسه لا يعلم بهذا ، ولقد مهد لها بوصف الطائرة وصفاً حسناً ، وهكذا النفوس الكبيرة تريد أن تستشرف هذا العالم ، وتطل عليه ، ومن براعة استهلاله فيها قوله :

أرى ابن الأرض أصغرها مقاما ... فهل جعل النجوم بها مراما
زهاه رونق الخضراء لما ... تلفت فى مجرتها وشاما

ومن معانيه فى مقتل على كرم الله وجهه :

ألا تبت يد بالغدر ثارت ... تمد إلى أبى حسن حساما
لو ان السيف يعلم أى نفس ... أراد لمات فى الغمد انشياما
لو ان السيف كان له خيار ... لعرّد عنه ، وانثلم انثلاما
لو ان السيف كان له خيار ... مضى فى قلب ملعون اليتامى
به فجع المدينة والمصلى ... وزلزل بطن مكة والمقاما
ولولا الغدر لم يرفع جبينا ... لهيبته ولا نظرا أماما
بروحى غرة يجرى عليها ... دم أذكى من المسك اشتماما

جبين زاده بالموت نوراً لقاء الله فأتلق ابتساما
بروحى إن يجود بخير نفس تخاف على الحنيفة أن تضاما
إلى دار السلام مضى على وجاور فى منازلها السلاما

وهكذا لم يشأ إلا أن يكون أسلوبه قوياً بليغاً على طول القصة، واتحادالقافية على غير مايعمد بعض المتشاعرين وغيرهم من المجددين إلى تغييرها، وقد بلغت العلوية ثلثمائة وسبعة أبيات.

وقد اشتهر هذا الشاعر الكبير ببراعة الاستهلال، حتى امتاز بها من غيره كقوله فى مرثية فتحى باشا زغلول عام ١٩١٤ :

أرى الشعر يدمى بالدموع المآقيا كفى حزناً أن تسمع الشعر باكيا
دعونا القوافى أن يكن تهانيا فجئن على رغم الأمانى مراثيا

ومما أثر فى نفسه أن أصابه محزن أليم فقال فيه :

بكت الحمام فهل لهن شجونى وبكى الغمام فهل أمد شئونى
أعدى السحاب غزير دمعى مثلما أعدى الحمائم لوعتى وحنينى

وبعد فهل ترى شاعرنا الفحل ينسى أن يمدح الحضرة النبوية، ويخصها بجانب كبيرمن شعره، وهو ذلك التقى الأروع، لقد نهج منهج من سبقه، وتبع مدحة الأبوصيرى، ونهج البردة لشوقى، فكتب قصيدة سماها ظل البردة، ولكنها تقل عن السابقتين، وقصيدة أخرى همزية يحاكى بها صاحب البردة فى همزيته، وشوقى أيضا. وقد سار فى (ظل البردة) فى أولها مسير صاحبها فى غزله ونسيبه فقال :

أغرى بك الشوق بعد الشيب والهرم سار طوى البيد من نجد إلى الهرم
يا سارى الطيف يجتاب الظلام إلى جفن مع النجم لم يهدأ ولم ينم
يغريه بالدمع حاد بات مرتجزاً يحدو المطى لأجراع بذى سلم
إذا خفى البرق أذكى فى جوانبه ناراً تؤججها الذكرى بلا ضرم
يا برق مالك لا تحكى جوى كبدى إذا تألقت ليلا فى نديهم
ويا صبا روِّحى روحى فقد ذهبت بها النوى بعد عهد البان والعلم

وصفه وفخره :

لا يظهر الشاعر مجيدا ، إلا إذا أجاد الوصف إجادة يبز بها سواه - وهو يتفاوت بتفاوت درجة الحس والإدراك ، ودقة الملاحظة ، واتساع الخيال ، وحسن التعبير - وجاء اللفظ مصقولا ، والمعنى ساميا مقبولا ، ولو قدّر لشاعرنا هذا كله ، كما قدر لأمير الشعراء شوقى بك ، لكان له فى الوصف العجب العجاب فهو شاعر صافى الديباجة ، متين القافية ، واسع الاطلاع على مفردات اللغة ووقائعها ، ومواضع استعمالها فى كلمه وبيانه . وليس من رأيه كثرة الترادف ، لأنه يرى أن كل كلمة يجب أن توضع فى مكانها ؛ لأنها تؤدى معنى غير الذى يؤديه غيرها ، فلكل كلمة عنده جرس خاص ، وما أكثر ما تزل أقدام كثير من الشعراء فى هذا ، وتنبو أقلامهم ، فلا يجيدون الدقة فى التعبير وصوغ العبارة ، ولنبدأ بوصف شاعرنا للشعر ، لأنه مادة الشعور والحس ، فقال من قصيدة ألقيت فى دار التمثيل العربى عام ١٩٢٣ أقامها شوقى بك وسميت تلك الحفلة « سوق عكاظ » حيث كانت هناك مساجلات أدبية بين أئمة الشعر والأدب ، وما أحوجنا فى هذا العصر إلى مثل هذه المحافل الأدبية التى ترقى الأدب وتحيي دولة الشعر :

« عكاظ » أعد أيام قومك واغتبط بخير زمان بين أكرم جيل
عسى يستبين الرشد فى الشعر فتية أرى الشعر منهم فى أسى ونحول
لقد ظلموا أم اللغى فى جمالها بباطل دعوى منهم ووغول
إذا وزنوا بيتا على النظم صفقوا وما الشعر فى مستفعلن وفعول
وكم شان زيف الشعر فى الناس أمة أصيبت به من واغل ودخيل
هو الشعر ميزان العقول وإنما قياس الورى فى أنفس وعقول

فهو يرى الشعر ميزان العقول والقلوب ، ولا يراه فى « مستفعل وفعول » ومن وصفه لعين شمس قوله :

كأن ثراها فى الضحا ذوب عسجد يضاحكه فى الأفق شمس أصيل
كأن ضياء الكهربا فى سمائها سنا الشمس وهاجا بغير أفول

إذا انبعثت والليل مرخ سدوله تسد على الظلمـــاء كل مسيل

ثم تراه يحفل بالجميل فى كل شىء ؛ بصفاء فطرته ، فيصف الآنسة أم كلثوم وهى تغنى عينية ابن النبيه المصرى وهو يدل على رقة وجمال :

وقفتْ فكان على الدجى أن يخشعا وعلى الحمام الورق أن تتسمعا

وترنحت فكأن أغصان الربا سقيت سلافا بالنسيم مشعشعا

تشدو وقد ملك الوفاء فؤادها : « أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعاً »

لحن إلى الألباب تبعثه الصبـــا فترى القلوب به ذوائب نزعا

عذب يسير مع الحياة إلى النهى تخذت له فى كل قلب موقعا

كالروح تنبعث النفوس بسره أو كالحيا جاء الثرَى فترعرعا

إنأنشدت « ملكالفؤاد » سمعتمن تلقاء قلبك « ما عسى أن أصنعا؟ »

أو رجعت « هل فى فؤادك رحمة » خلت النجوم لها خوافق خشعاً

أو صورت معنى الهوى فى لحنها كان الغرام لكل نفس مرجعا

ما إن ترى فى الجمع إلا موجعا « ضمت جوانحه فؤادا موجعا »

ولم ينس أن يصف البخار ، والطائرة ، فأجادفيوصفهما ، كما أجاد فى وصف الظعائن والحدوج ، إجادة غلبت على معظم شعره ، حتى كأنه يعيش فى البادية فمما وصف به البخار :

سبق البخار إليهما عن أمره سبق الشهاب لمارج من نار

يطوى على عجل فيا فى قبله بعدت على طيف الخيال السارى

« باء » البخار لقد علمنا أصبحت فى شرعة التاريخ « فاء » فخار

وقال فى وصف الطائرة وصفا يعد من محاسن قوله ، ومباهج شعره :

وقفت لك الدنيا فسيرى مسرى الضياء من الأثير

يا أخت سابحة النجو م وبنت سانحة الضمير

أفأنت وافدة البخا ر على الأجادل والنسور

ثارت لتأخذ باسمه عهدا على ملك الطيور

ملك البخار على السما ك بصولة الملك القدير

في كل غواص ورســـاب بأحشاء البحور
ثم انثنى يرمى سما ك الجو (بالجيش) الغزير
فالنجم فى فرق يجو ل بجفن مرتاع حسير
والسحب من حذر البخا ر وبأسه حيرى المسير
يا منذر الأفلاك هل للأرض دونك من نصير
ما هذه الوُرْق التى فى الجو تغلو فى الهدير
غيرى من الأطيار فى أحشائها لهب السعير
فتخٌ مخالبها الحد يد وريشها نسج الحرير
غنيت بمحبوك الدمقـــس عن القوادم والشكير
ترد السحاب الغر إن ورد الحمام على الغدير
خشعت لها هوج العوا صف فى الرواح وفى البكور
وتكاد تسمع للجبا ل بها صريخ المستجير

وقد وصف الطائرة فى قصيدته العلوية ليركبها عله يلتى بها على السحب الإمام عليا وقد أسماها بنت الهواء ، فذاعت هذه التسمية بعده :

على بنت الهواء كأن طيفا يشق الجو يقطعه لماما
إذا ما هزمت فى الجو خلنا جبال النجم ،تنهد انهداما
فهب لى ذات أجنحة لعلى بها ألتى على السحب الإماما

ولعل وصفه هذا محدود التصوير ، غير عميق المعانى ، ولكنه فى بقية أنواع الوصف ترى قلمه سيالا يفيض بالمعانى الغزار ؛ كوصفه لأسرتين : إحداهما فقيرة معدمة ، والثانية غنية وافرة الثراء ، فهو يزاحم شاعر النيل فى وصف الأولى مزاحمة تجعلك تحسب أنه من شعره :

وارحمتا للكريم يشكو نوائب العيش أو يدارى ؟
إذا شكا فالشكاة عار عليه في شرعة الوقار
وإن دعا الصبر لم يجبه وحوله جائع وعارى
هذاك يشكو الطوى لأخرى ألصقها البرد بالجدار

وصاحب البيت بين هذى وذاك فى لوعــة ونار
يقول : يارب ، عيل صبرى فهل درى ما لقيت جارى ؟
هيهات هيهات ؛ فهو لاه بنعمة العيش واليسار !
قصر يشق السماء طولا نخم الدعامات ، ذو منار
بُدورُه لا ترى سِرَارا إذا اختفى البــدر بالسرار
تلألأ الكهرباء فيــه تلألؤ الكُنَّس الجوارى
كأنه والظلام ساج من حوله - آية النهار
ومركب كالنسيم يجرى على الثرى آمن العثار
لا خيل تعدو به ولكن حييت يا دولة البخار !

ثم يصف الطعام فيقول :

ولو ترى إذ ترى طعام الــعشاء تجرى به الجوارى
من كل رومية كعاب شفافة الثوب والإزار
يمشين حول الخوان زهوا مشى المعنَّى من الإسار

والذى أعجب له ، أن شاعرنا لم يكن ممن خاض الحروب وغشى معمعانها ؛ ولو فعل كما فعل أخواه حافظ والبارودى ، لكان له فى وصفها شأن غير هذا الشأن ، ولكنه أتى بالمعجب القوىّ ، لما طبعت عليه نفسه العربية من حماسة وشجاعة ، وإذا قرأت شعره فى تلك الناحية ، خيل إليك أنك تقرأ وصف قائد عظيم ، أبلى فى الحروب بلاء حسنا ، وقد بز بعض المعاصرين ، حتى كان له أسلوب عرف به ، ويظهر أن لذلك سببا ، هو حميته الإسلامية ، ونعرته العربية . ولقد يرمى فى شعره كله إلى غرض واحد ، وفكرة واحدة ، على غير ما نعهده فى الشعراء الآخرين ، الذين تنوعت آمالهم ، وكثرت أغراضهم ؛ يظهر هذا الغرض فى شعره إذا تصفحت ديوانه . فهو يحفل بالعرب والإسلام ، وزعماء الشرق وحوادثه ، حتى ملك ذلك عليه كل مشاعره ، وكان يأمل أن يدعى شاعر الإسلام ، لأن أجود شعره ما كان فى تلك الناحية الدينية ، يؤيد ذلك أنه كان قد شرع فى

قصيدة يصف بها انتصار الترك على اليونان فى سقاريا . وبعد مضى أبيات منها ، حيل بينه وبين إتمامها ، وكان السبب فى وقوفه وخمود قريحته فجاءة ، انحراف الأتراك فقال :

هـذا مقامك شاعر الإسلام ... فقف القريض على أجل مقام
عادت صوارمنا إلى أغمادها ... من بعـد ما ظفرت بخير مرام
هذا الحنيف يسير تحت ظلالها ... نخمَ الجـــلالة سامىَ الأعلام

وكلما وجد فرصة التمدح بمآثر الإسلام ورجاله ، وحماة دعوته ، وقف قلمه ولسانه عليه ؛ وكان ذا عاطفة نبيلة ، ونفس عالية أبيـة ، فتراه يرثى شيخ الإسلام ، الشيخ سليما البشرى ، وتراه يشكو ما أصاب الدين فى مصر عام ١٩٠٠ ، وكان مدرسا بسوهاج ، ولم ينشدها فى حفل ، بل أنشدها بينه وبين نفسه ، وتراه يصف الحرب بين الترك وإيطاليا ، بطرابلس الغرب ، وصفا يفيض عاطفة وقوة ، وقد جاشت نفسه حزنا على أهلها ، فكتب قصيدة تزيد على مائة بيت فى ليلتين ، وكذا الشعر ، إذا كان فيض العواطف والقلوب ، جاءعفوا ؛ وكلها فخر بمآثر العرب ، وإشادة بسالف مجدهم ، وفتوحاتهم ، وأولها :

بنى أمنا ، أين الخميس المـدرّب ... وأين العـوالى والحسام المذرب ؟
إذا اهتز فى نصر الحنيف تساقطت ... نفوس العـــدا من حده تتحلب !

ثم وصف الهجرة :

فِدًى لبـنى الأقيال يستقبلونه ... وهم حوله جمع كثيف وكوكب
لهـم جلبات بالبشائر حوله ... وملهى بأطراف العوالى وملعب
فيومئذ لا تَسألِ الشركَ ما رأى ... وإن قيل : أولى بالسؤال المجرب
وسائلْ سيوف الله : ما فعلت به ؟ ... تجبك الظبا والزاغبى المحرب
فكم طحنت فى ساحة الموت فيلقا ... لصولتها الأسد الضراغم ترهب
وسل صهوات الخيل : كم وطئوا بها ... نواصى حصن بالضلال وخربوا ؟

وقال يصف خالداً :

ترى الفتح يجرى قبله فى خلالها ... مسيرة عشر والهدى يتغلب

وقال يصف وحدة المسلمين :

إذا ما علت بالصين أنوار كوكب من الدين ، حياه ببرقة كوكب
خليلى ، مالى إذ تذكرت برقة بجنبى نيران الأسى تتلهب ؟
نعم ، راعنى من نحو برقة صارخ يهيب بأنصار الهلال : ألا اركبوا
دعا صارخ الإسلام : يا لبنى الهدى، أغار العدا ، أين الحسام المشطب ؟
أرادت حمى الإسلام (روما) فأقبلت زعانفها فى بغيها تتثعلب
ثعالب لاقت خلسة فتزاءرت فيا عجبا من زائر وهو ثعلب !
فإن يك أغراكم سفين مدرع فما لسفين البحر فى البر مذهب
وإن غركم أن الخطوب تنكرت زمانا لنا ، فالدهر بالناس قلب
سلوا الدهر عن آبائنا فى وقائع صوادق فى آبائكم لا تكذب
أولئك هم آباؤنا ، ولأنتم كآبائكم ، والفرع للأصل ينسب

ومنها :

أذؤبان روما ، ليست الحرب مرقصا ، بغاداته يلهو خليع ويلعب
ولكنها سوق المنايا ، تقيمها نفوس على وقع الصوارم تطرب

ومنها :

حذار ، فللإسلام فى كل بقعة سراة ، إذا ما أجدب الناس أخصبوا

ثم تراه لا يكتفى بهذا ، بل يقول فى الحرب الماضية فى طرابلس بين الترك والطليان قصيدة أخرى طويلة ، أولها :

هى الهوجاء ، كم طحنت قرونا وكم سخنت حوادثها قرونا
سلونا عن مشاهدها سلونا إذا كنتم بها لا تعلمونا

ومنها :

ملوك الغرب ، ما هذا التعامى؟ وما للحق بينكم مهينا ؟
يساق ضعافنا للموت بغياً وأنتم تسمعون وتبصرونا ؟
فأطفال تناولها العوالى كرات بين أيدى اللاعبينا
وأشياخ تولى الدهر عنها فكانت فى عداد الهالكينا

يعز على الحمية أن تراهم سطوراً فى الحديد مصفدينا
يعز على حميتنا صغار يسامون الردى لا يرحمونا
يعز على الحمية أهل نعمى « يساقون العشية يقتلونا »

ومنها:

إذا تبعوا غوايتهم وجاءوا بنا يوم الوغى يتحرشونا
فنحن المؤمنون، «وكان حقاً على الرحمن نصر المؤمنينا»

وحسبك هذا دليلا على صدق دعوانا، وعلى أنه كان ذا أنف حمىّ، ونفس مؤمنة، وقلب يفيض بالوفاء لدينه ولبلده؛ أما فخره فقد تقدم فى تضاعيف المقال أثارة من مأثوره، وهى عنوان على شرف أرومته، وعزة نسبه، واعتزازه بقومه وعشيرته.

(يتبع) عيسى محمود ناصر

جولة فى الريف

بقلم عبد الستار سلام

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية للبنات

جُلْ جَوْلةً فى الرِّيف وانظرْ، هل ترى غيرَ الجمالِ بساحتيه نزيلا ؟
فهُنَالكَ الدُّنيا تتيهُ جلالةً وتجرُّ من ضافى الجلال ذيولا
صاغ الجمالُ لها الزبرجدَ بُردةً ، والزَّهر عقدا ، والضُّحا إكليلا
فغَدَتْ لعُشَّاق الطبيعة فتنةً وعلى المليكِ محَجَّةً ودليلا

* * *

طاب الهواء به ، فطابَ إقامةً وجرتْ جداولُه ، فرقَ مَقِيلا
خلَعت عليه النيراتُ ثيابَها قُشُباً ، وحلّت فى رُباه حُلولا
وصفت مناظرُه ، فكان صفاؤها بشفاء أدواء النفوسِ كفيلا
والماء كالمرآةِ يبدو سطحُه متموِّجاً ، أو كالحسامِ صَقِيلا
يجرى كأسلاك اللجين إلى القرى من كوثرٍ سمّاهُ قومٌ النِّيلا
والسِّحرُ حلّق فى سماء ربوعه وعلى ثراه مشى ، فكان حقولا
شَركُ الخواطِر والقلوبِ ، ومجتلًى للعبقريّة بكرةً وأصيلا

* * *

جنّاتُ عدنٍ فُتِّحَت أبوابُها لمن استطاع إلى النزوح سبيلا
لا تستبين العينُ فى أرجائها إلا المحاسن مُثِّلت تمثيلا
تتعانقُ الأغصانُ نشوى مثلما قد عانق الخِلُّ الوفىُّ خليلا
والزهرُ داعبهُ النسيمُ وقد سرَى بينَ الخمائل والرياضِ عليلا
والأقحوانُ على الرُّبى متضاحك والريح تجرى شمألاً وقبولا
والوردُ بسّامٌ يروعُك كلما شاهدته فوقَ الغصونِ شكولا
وهفا الأريجُ ، فأطفأت أنفاسُه بينَ الجوانح والضلوعِ غَليلا

وسرى النشاط إلى النفوس، فلا ترى بينَ الحقول أو الرياضِ خمُولا

٭٭٭

والأرضُ كاسيةٌ غلائلَ رطبةً خضراءَ جللت الثرى تجليلا
وترى السماءَ قد انحنت آفاقها وهوتْ تُقَبّل خدَّها تقبيلا
وتحوطها أطرافها ، فكأنها أمٌ تدلّل طفلها تدليلا
قد أطلعتْ فيها النجومَ وأطلعتْ من كلِّ نجمٍ ثاقبٍ قِنْديلا
فاخفض جَبينَك روعةً ومهابةً واسجدْ، فقد طابَ السجودُ طويلا

٭٭٭

وصفِ الصباحَ وقد تدلى خيطهُ نصْلا على هامِ الدُجى مَسْلولا
وتتابعت أجنادُه وجيوشُه زُمراً تنوء بعدَّها ، وقَبيلا
يتناسلون تناسل الأسماك فى قِمَم الجبال ، حلائلا وبُعُولا
فعَلَى الذوائبِ كم تشاهدُ ناشئا وعلى الأباطح كم تحِسُّ سَليلا
وترى السَليل أباً ، وبعد هُنيهة جدًّا ، يَقودُ من السلائل جيلا
متشابهُون ، فلا فوارقَ ميزت أصلا ، ولا عدت الفروعُ أُصولا
وتفرقوا فى كلّ وادٍ بعد مَا بعثُوا إليه مبكّرِينَ رسولا
تخذوا البياضَ شعارهم ، وكأنما صاغُوا النجوم أسنةً ونُصولا
والليلُ فى هلَعٍ يسير أمامَها وخداً ، وآونةً يسيرُ ذَميلا
وتراه يضحكُ أو يقهقه كلما هتك العُداةُ رداءهُ المسدولا
والكونُ فى ظِل الصّباح خيالة رسمت له فوق الضياء مثيلا
ضاقَ الفضاءُ به ، وضاقَ بجيشه ، ورأى البسيطةَ لا تجاوزُ مِيلا
فتخاذلتْ أشلاؤُهُ وتهدّلت وارتد منهوكَ القوى مخذولا
والصبحُ فى كرٍّ وفرٍّ لم يزلْ حتى غدا جيشُ الظلامِ فلولا
شاب الغرابُ وفرّ منه جنودُه واليأسُ أدركه فخرّ قتيلا

ومشى الصباحُ مظفَّراً فى جحفلٍ   عرْضاً يضيق به الفضاءُ وطولا
يختالُ زهواً فى مطارفِ لؤلؤ   رطبٍ ويسحبُ صارماً مصقولا
متنقلاً ، لا يستقرّ بربوةٍ   إلا ودقّ بشائرا وطبولا
والطير تسجع ، والبلابلُ غرّدت ،   والديكُ صاحَ مهلّلا تهايلا
وصحَا الخلائقُ مُطعين ، كأنّما   بُعِثوا وعادوا للحياة الأولى
رأوْا الكرَى بعض المماتِ وأنهُ   قــد كان قيدا للنفوس ثقيلا
ورأوْا دياجيرَ الظلام مروعةً   ليثاً يكفكِفُ ما ضِغَيْهِ وغُولا
فاستبشروا خيراً ، وما من واحدٍ   إلا وقــد حَمد الإله جزيلا
واستأنفوا شتّى الشئون كعهدهم   متفائلينَ ، شباباً وكهولا
وإذا بقرن من عقيق مشرق   يبدُو قليــلا فى السماءِ قليلا
فكسَا الطبيعة حُلّةً ذهبيةً   والكونَ ثوبَ الأرجوان جميلا
ثم اســتدار فصار قرصاً موقداً   أوَلَى ويُولى دهشةً وذهولا
ويحفُّه لهبٌ لوان شرارةً   طارتْ لصيرت الوجود طلولا
إنْ زدتَه نظرا يَزِدْك مهابة   ويردّ طرْفك إن أطلتَ كليلا
جلّ الصنيع ، ولا أزيد تأدباً ،   صنع الجليل إلى الأنامِ جَليلا

***

طلعتْ كما طلعَ الملوكُ على الورى   هيفاءَ تفتنُ بالجمال عقُولا
فإذا الوجودُ يَسيلُ من خجلٍ ندًى   وإذا الرءوسُ قــد انحنت تبجيلا
وإذا الضيــاءُ على الثرى متناثر   غرراً لأزهار الربا وحجولا
والروحُ دبّتْ فى الوجود وجمّلت   شمسُ النهــار رُواءَه تجميلا
فنما النبات وشبّ فى كنف الضحا   وزها وأدركَ شأوَه المأمولا
والنــاسُ بين معُمّرَ أو ناشئٍ   كل يفرُّ إلى الحقول عجولا
فإذا المزارعُ حافلاتٌ بالورى   وبشأنه كلّ غدا مشغولا

يستنبتون الأرض وهى مناجم ثمراً تراءى تبرها وبقولا
ترمى وتقذفُ بالثراء وتقتضى كفاً تدرّ وساعداً مفتولا

***

عُرِفتْ بلادُ النيلِ من عهد مضى بالخصب دوّنه الزمان فصولا
وحَدا الحداةُ بجودِهـا ركبانهم والدّهر رجّع حَدْوَها ترتيلا
وجد النزيلُ له بهـا وطناً كما أمسى وأصبحَ بالنّدى مشمولا
وإذا به قـد صارَ بعدُ مُسَوّداً والمـالُ يخلقُ من ذويه قبولا
وسعَى إليه الرزقُ سيلا جارفا وسعى المجـدُ له فكانَ ضئيلا
فُتِحَتْ على كلتا يديه كنوزها وحَبَتْهُ جزلا فاستحل فضُولا
أغنته مصر فصاغ من وفر الغنى طوقاً يكبّلُ جيدَها تكبيلا
وغـدا نتاج الأرض طوع يمينه يُجْبَى إليه على المَطِى محمولا

***

يشقى المزارعُ دائمـاً ويعيش فى ظلّ الشقاء ولا ينالُ فتيلا
من كفّه خيرات مصر تدفقت ذهبـاً ، وحالت فى يديْه محولا
أمن العدالة أن يكون نتاجه يسراً ، ومن عسرٍ يعيشُ ذليلا ؟
مُدُّوا إليه يد المعونة ، إنه أولى العباد بأن يعيش نبيلا
ودَعُوه يَشْعر بالحياة هنيئة والعيش رغداً ، والزمان ذلولا
فاذا اطمأن لشأنه زادَ الثرى خصباً وأرباب الثرى تمويلا
لا تُهْمِلُوهُ ، فإن فى إهماله ضرراً يعود على البلاد وبيلا
ولتَجعلوا بين المدائن والقرى نسباً كأنسابِ الكرام أصيلا
إن الفوارقَ لا تزالُ كعهدها منْ يوم أن خلقت ، قذًى وذُحُولا
خطُّوا له كلَّ المرافق ، وارقبوا مجـداً كمجد النّيرات أثيلا
إن تصلحوا شأن القرى كلّلتم هامَ البِلاد بمجدها تكليلا
كتب الزمانُ صحيفة قدسيّة للمصلحين وعـدّها إنجيلا

عبد الستار سلام

أسلوب الكتابة وابن المقفع

فى العصر العباسى الأول « ١٣٢ – ٢٣٢ هـ »

بقلم الدباغى بيومى
الأستاذ بدار العلوم

لم يكد العصر الأموى يشارف منتهاه ، حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبعى ، لا أثر للصناعة فيه ، إلى ترسل صناعى ، أرسل أساسه « سالم » كاتب هشام ، وأعلى بناءه « عبد الحميد » صاحب ديوان مروان ، بما ابتدع من رسوم للمبادىء والخواتيم ، وما جال من جولات بعيدة الأطراف ، بين الإطالة والإقلال ، وما نوّع فى الرسائل الإخوانية من أنواع ، غير أن أثره هذا – وقد جاء آخر العصر – لم يقض القضاء كله على الترسل الطبعى لدى جمهرة الناس ، فكان للكتابة حينذاك طابعان ، ورثهما العباسيون فيما ورثوا عن الأمويين . وإذ كان صدر العصر العباسى الأول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد ، فإن لنا أن نتوقع تراجع الترسل الطبعى فيه إلى الوراء ، واطراد الإنشاء الصناعى إلى الأمام ، حتى يعظم هذا ، ويفنى ذاك ، وهذا ما كان ، فلم نكد نلمح الأسلوب الأول فى كلام الخليفتين : السفاح والمنصور ، حتى توارى بعدهما واحتضنه التاريخ ، وساد الثانى جماعة الكتاب ، فصار الإنشاء صناعة حمل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط « عبد الله بن المقفع » واتبعه الجميع فيما رسم ، وإليك ما كان من استعداده وأثره فى الأسلوب الجديد :

نشأ ابن المقفع بالبصرة ، حيث كان والده يتولى خراج فارس ، لخالد القسرى والى العراق ، وهى حينذاك حلبة العربية ، ومجتمع الرواة ، وقرارة لِمِرْبد عكاظِ الإسلام ، والحاضرة التى يفد إليها فصحاء الأعراب ، ثم الدولة إذ ذاك عربية محضة ، لا تستكتب فارسيا فى الدواوين العربية ، إلا إذا أجاد العربية كأهلها ، فدفع به أبوه – وهو خير من يعرف ذلك – إلى تعلم العربية فى هذه البيئة الغنية

بها ، الصالحة لتنشيء الأحداث عليها . فحذق فنونها ، وتخرج فى آدابها ، وكان من حسن حظه وحظ العربية معاً ، أن كان ولاؤه وولاء أبيه فى بيت خطابة ، ومعدن فصاحة ، هو بيت الأهتم المِنقَرى . فكان فى نشأته قرينَ خالد بن صفوان وابن عمه شبيب بن شيبة ، وناهيك بهما : فصاحةَ منطق ، وذرابة لسان . ولما تمت آلته فى العربية تمامها فى الفارسية ، لغةِ آبائه وأجداده ، تطلع إلى التخرج فى صناعة الكتابة ، وكان عبد الحميد كاتبا لمروان بن محمد ، وهو والى الجزيرة حينذاك ، فتقرب عبد الله منه ، وأخذ يتأثر كتابته ، ذات الديباجة العربية ، والعقلية اليونانية ، ويحتذى فنه ذا النواحى المبتدعة ، والطرائق المستحدثة ضاما إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية ، حتى صار كاتبا يجمع إلى بلاغة العرب حكمة يونان ، وصناعة فارس ، فاستكتبه فى عصر بنى أمية داود بن يزيد ابن عمر بن هبيرة ، أيام ولاية أبيه العراق ، ولما دالت الدولة استكتبه أيام بنى العباس ، عيسى بن على والى كرمان ، وعلى يديه أسلم ، وتسمى « عبد الله » وكان اسمه روزبة ، ومن بعد عيسى ، كتب لأخيه « سليمان » أيام ولايته البصرة ، وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالأنبار ، فاتصل به وترجم له كتاب « كليلة ودمنة » ونقل إلى العربية كثيراً من آداب الفرس ، كما نقل إليها بعض كتب اليونان التى قد ترجمت إلى الفارسية . أيام كسرى أنو شروان ، فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية ، بعد تلك التى كانت له من عبد الحميد ، الذى عرف الكثير منها عن أستاذه « سالم » كاتب هشام .

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ، ولسان حسن التعبير ، زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب الترسل ، الذى كان لعبد الحميد ، وقصاراه : التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة ، دون نظر إلى مزاوجة أو تسجيع ، إلا ما جاء عفوا غير متعمَّل ولا مقصود ، والذى يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب — مع أنه فارسى الجنس واللغة ، ولغة فارس ذات عناية بزخرفة الألفاظ ، وحبك الأساليب — أنه فعل ذلك صادرا عن أمرين : أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة فى شرف المعانى ، وسهولة الألفاظ ، مع رصانة القول ،

ورشاقة الأسلوب ، ولذلك كان يقول : « عليك بما سهل من الألفاظ ، مع التجنب لألفاظ السفلة » ويقول : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة ؛ فإن ذلك هو العى الأكبر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة ؟ : « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يعنى أنها السهل الممتنع - وثانيهما اتجاه همه - فى تغذية العربية من الفارسية - إلى ناحية المعانى لا الألفاظ ، وللفرس فى المعانى مجال ، فهم ذوو فلسفة أصلية ، عُرفت لهم كما عرفت للهنود ، وقد غذوها منذ القديم بالفلسفة الهندية ، التى ترجموها إلى لغتهم ، كما فعلوا فى كتاب « كليلة ودمنة » ثم قبل أن ينقرض ملكهم ، نقلوا كثيرا من فلسفة اليونان ، ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون الحكمة عن علم وتثقيف ، لا كما تنطق العرب عن غريزة وفطرة ، ولذا لم تكن للعرب غنية عن ترجمة كثير من هذه الحكم فى هذا الطور العباسى ، الذى حصلوا فيه على قسط وافر من التعليم ، ولعل أول من نقل هذه الحكم وتلك الفلسفة إلى العربية عن يزدجرد ، وقباذ ، وبهرام ، وسابور ، وأنوشروان ، وأزدشير وأمثالهم ، فى السياسة والاجتماع ، وسائر أحوال الناس — رجلنا ابن المقفع الذى نتكلم فيه وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب المعنوى إلى الجانب اللفظى بحال .

وكما يمثل أسلوب ابن المقفع الترسل السهل الممتنع ، كما قلنا ، يمثل كذلك ما أشرنا إليه فى ناحية المعانى أتم تمثيل ، فكل ما كتب كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذى رسم ، سار من ورائه كتاب عصره : كيحيى بن زياد ، وعمارة بن حمزة ، والقاسم بن صبيح ، وأمثالهم ممن أدركوا الدولتين وكتبوا للمنصور ، وهم رجال الطبقة الثانية أمثال : أبى عبد الله معاوية ابن يسار ، وأبى عبد الله يعقوب بن داود ، ويوسف بن القاسم ، ويحيى بن خالد وأمثالهم ، ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد ؛ ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل ، وجعفر ابنى يحيى ، والفضل والحسن ابنى سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة ، وأمثالهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون ، وكذا أمثال محمد بن عبد الملك الزيات ، وإبراهيم بن العباس الصولى ، وغيرهما ، ممن تربوا فى عصر المأمون ،

وأدركوا العصر العباسى الثانى ، أيام المتوكل على الله ، فاعتبروا رجال طبقته الأولى . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذو ابن المقفع فى الألفاظ السهلة الممتنعة ، البعيدة عن الزّواج ، والسجع ، إلا ما جاء عفوا . وفى المعانى الشريفة النبيلة ، المشعرة بسعة العقل ، وقوة المنطق ، ولذا يحق لنا أن نقول : إن استفادة الكتابة العربية من الفارسية ، فى العصر العباسى الأول ، كانت فى ناحية المعانى أظهر وأوضح منها فى ناحية الألفاظ ، ولسنا نقول ذلك عن غير دليل نتقدم به إلى القراء ، فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور فى كتاب بغداد يقول : « حدثنى أبو الحسن أحمد بن محمد المهلبى قال : حدثنى يحيى بن الحسن ابن على بن معاذ بن مسلم قال : إنى بالرقة بين يدى محمد بن طاهر بن الحسين على بركة ، إذ دعوتُ بغلام لى ، فكلمته بالفارسية ، فتدخل العَتَّابى ، وكان حاضرا معنا فى كلامنا ، فتكلم معى بالفارسية ، فقلت له : أباعمرو ، مالك وهذه الرطانة ؟ فقال لى : قدِمت بلدتكم هذه ثلاث قدَمات ، وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرو — وكانت الكتب سقطت إلى ماهنالك مع يزدجرد فهى قائمة إلى الساعة — فكتبت منها حاجتى ، ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ ، إلى قرية ، فذكرت كتابا لم أقض حاجتى منه ، فرجعت إلى مرو ، فأقمت أشهرا ، قال : فقلت : أبا عمرو ، ولم كتبت كتب العجم ؟ فقال لى : وهل المعانى إلا فى كتب العجم ؟ البلاغة فى اللغة لنا والمعانى لهم ، قال : ثم كان يذاكرنى ويحدثنى بالفارسية كثيرا »(1)

ولهذا الذى كان من الكتاب فى هذا العصر من العناية بالمعانى — لبست الكتابة فيه ثوب الإيجاز ، أكثر مما جررت ذيول الإطناب ، ثم كان الكتاب يجدون لذلك حسن وقع فى نفوس الخلفاء . حدث أحمد بن يوسف وزير المأمون قال:

---

(1) العتابى هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابى ، ينتهى نسبه إلى عمرو بن كلثوم التغلبى ، وهو شاعر رقيق مطبوع ، وكاتب مترسل بليغ ، قال الجاحظ : كان العتابى ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة ، وقال يحيى البرمكى لولده — وكان العتابى منقطعا إليهم — إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابى فضلا عن رسائله وشعره فافعلوا فان تروا أبدا مثله .

« دخلت على المأمون وهو يمسك كتابا بيده، وقد أطال النظر فيه زمانا، وأنا ملتفت إليه، فقال: ياأحمد، أراك منكرا مني، متفكرا فيما تراه! فقلت: نعم وقى الله أمير المؤمنين من المكاره، وأعاذه من المخاوف، قال: فإنه لامكروه فيه، ولكني قرأت كلاما وجدته نظير ما سمعته من الرشيد يقوله في البلاغة؛ فإنه كان يقول: « البلاغة: التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة في هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب، ورمى به إلى وقال: هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إلى. فقرأته فإذا فيه: « كتابي إلى أمير المؤمنين، ومَنْ قِبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة، على أحسن ما تكون عليه طاعة جند، تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم، واختلت لذلك أحوالهم، والتاثت معه أمورهم » فلما قرأته قال: إن استحساني إياه بعثني أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حَلّ محله في صناعته.

هذا، وإنك لتجد الإيجاز باديا فيما لابن المقفع من إخوانيات، بل فيما له من رسائل طالت حتى أخذت اسم الكتب، لأن العبرة في الإيجاز إنما هي في قصر مايُكتب، بالنظر إلى ما عُبِّر عنه من معان، ولذلك قد يوجد الطول مع الإيجاز كما هي حال تلك الرسائل، كما قد يوجد الإطناب مع قلة كَمّ الكتاب.

وقد اقتدى بابن المقفع في هذا الإيجاز، كتاب العصر الأول طرا، وهذان اللذان جاء ذكرهما في الرسالة السابقة - مع أنهما من الطبقة الثالثة - كانا من أعلام الموجزين. كتب أحمد إلى ابراهيم بن المهدى، وقد استقل إبراهيم هدية ألطفه بها يقول: بلغني استقلالك لما ألطفتك به، والذي نحن عليه من الأنس، سهل علينا قلة الحشد في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم، إلى من لا يغتنم ». وكتب في التهنئة بإفراق من مرض: « قد أذهب الله وصب العلة ونصبها، ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها، أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها »، وكتب عمرو موصيا بشخص: « كتابي إليك كتاب واثق بمن

كتب إليه ، معنىّ بمن كُتب له ، وان يضيع حامله بين الثقة والعناية » . وكتب إلى المأمون يستشفع فى رجل بالزيادة فى منزلته ويعرّض لنفسه : « أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطولك على ، فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته . والسلام » فوقع له المأمون : « قد عرفنا تصريحك لصاحبك ، وتعريضك لنفسك ، وأجبناك إليهما ، ووقفناك عليهما »

على هذا الغرار من الإيجاز كان أسلوب الكتابة فى العصر العباسى الأول حتى إذا ما جاء العصر الثانى تحول إلى إطناب ، كما سنحدثك بعد إن شاء الله .

السباعى بيومى

حاجة الطفل إلى الرقص والغناء

بقلم علي الجندي
المدرس بالمدرسة الخديوية

فى فطرة الطفل نزاع شديد إلى المرح والطرب : فتراه يستروح إلى الأغانى العذبة ، ويصيخ سمعه للموسيقى الهادئة الوادعة ، ويهش للترقيص الهين اللين ، لينفس بذلك عن غرائز فتية متوثبة ، لا يتسع لها جسمه الصغير .

وإنك لتحمل الطفل فيروعك منه ، أنه يُشِبُّ رقبته ، ويحرك أطرافه فى أوضاع شتى ، ويتلوّى ويترنح ، ويهتز كالفَنَن المَرُوح ، يدعوك بهذه الحركات المتداركة إلى تنزيته ، فاذا نزلت على رغبته طائعا أو مكرها . أسفر وجهه ، وافتر ثغره ، وصاح صيحة الفرح والسرور ، ولان فى يديك ، وأبدى مرونة ومطاوعة ، كأن ظرفه يأبى عليه إلا أن يحمل عنك بعض العبء فى هذه المهمة (الشاقة) .

وليس فى الوجود مرأى أحلى وأبهج من منظر طفل يترقص فى يدى أبيه أو أمه : يعلو تارة ويسفل أخرى ، لا يقر على حال ، فيعرب عن غبطته وسروره بألفاظ متقطعة لا يفهم معناها ، ولكنها أنم على مراده من الزجاج المشوف على ما وراءه ؛ ويبسم بسمات مؤتلقة يتراءى فى ومضاتها جميع ما يتخيله الناس من ألوان السعادة !

ويميل الطفل إلى الغناء خاصة ، حين ترنق فى عينه سنة الكرى ، أجل فى هذه الموتة الصغرى ، يهفو الرضيع إلى سماعه صوت أمه الرخيم ، ينساب فى أذنيه فيملأ نفسه بهجة وأنسا ، ويفيض على قلبه بشاشة الطمأنينة ، فإذا هو يغط فى نوم هنىء ، ويمرح فى فردوس مونق من الأحلام اللذيذة ، يصحو أثرها منشرح الصدر ، طيب النفس ، ناعم البال !

ورأى الأطباء المحدثين معروف فى ذلك ، فليست بنا حاجة إلى إيراده ،

ولكننا نعرض رأى قدامى الأطباء ، ومنه نستبين أنا بسبيل موضوع شغل الأذهان من قديم الزمان :

يقرر الطب القديم :(١) أن الصوت الحسن يسرى فى الجسم ، ويجرى فى العروق . فيصفو له الدم ، ويرتاح القلب ، وتهتز النفس والجوارح . وتخف الحركات ، ومن أجل ذلك كرهوا للطفل أن ينوّم على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب . اه .

ولو قدر لك أن تتصفح وجوه الأطفال ، وهم هاجعون فى المضاجع ، لقضيت العجب مما ترى عيناك !!

هذا طفل متطلّق الوجه ، وضّاح الجبين ، يُقبَس النور من قسماته ، ويُجنى الورد من وجناته ، تنفرج شفتاه الأرجوانيتان فى الفينة إثر الفينة ، عن ابتسامة رقيقة لا تملك لا أن ترد عليها بمثلها ! .

وهذا طفل عابس منقبض الأسارير ، كأنما وجهه بالخلّ منضوح ، يزوى ما بين عينيه طورا ، ويزمّ بأنفه تارة ، ويمط شفتيه آونة ، ويحتشد للبكاء حيناً ، ويتنفس بين ذلك كله تنفساً حارا مستطيلا ، يصوّر لنا ما يعانيه : من هواجس مروّعة ، وأحلام مزعجة ! فما السر فى ذلك يا ترى ؟

السرّ فيهما : أن الطفل الأول ، رُزق أمًّا رءوما ، واسعة الصدر ، راجحة الحلم ، دقيقة الحس . رحيمة القلب ، سلسة الحاشية ، عالمة بأسرار الطفولة ، فهى تَبرّه وتحنو عليه ، وتغمره بحبها وعطفها ، ولا تُنيمه حتى تغنّيه وتنزّيه ، فينتقل من يقظة سارة ، إلى نومة هادئة مريحة !

أما الثانى : فقد أوقعه الجَدّ العاثر ، فى يد أم جاهلة حمقاء ، ضيقة العطن ، جافية الطبع ، عسرة الأخلاق ، لا تبتغى الوسيلة إلى سروره ، ولا تدرك من معانى التربية غير إلقامهِ ثديها ، وملء بطنه بدرّها ، فإذا برمت بحمله أضجعته قسرا . وجعلت تفرك عينيه حتى تذبلا ، وتضرب على ظهره ببسط يدها ،أوجمعها ضربا ينخلع له قلبه ، وتنفطر مرارته ،وتهزه هزا عنيفا يجنى عليه الدوار وغشيان

(١) العقد الفريد

النفس . وربما عنّ لها أن تغنيه ، ليسرع إليه الغمض ، فيكون قصارها إذا تخيرت واحتفلت ، أن تترنم بهذه الأغنية السخيفة :

نـــام نـــام (١) وادبح لك جوز ين حمام
يـــا ولد يا زين يا كحيل العـــين
عنـــدنا بنتين يا ولد تجَوِّزش ؟

وقد تبلغ منها القسوة ، إذا أبى أن ينام ـ والنوم كما يقولون سلطان لا يجلب بالقوة ـ أن تهتف بالمزعجات : وأسماء المردة والشياطين والوحوش الضوارى ، فيتقبض المسكين ، ويلتوى على نفســه التواء الأفعى ، ويتكلف النوم تكلفا ، وإذا نوم كنوم المأخوذ بجريرة القتل ، لا يكاد يهوّم حتى تفترسه الأوهام ، وتسلّ عليه سيوفها الأحلام ! !

وإنه ليحزننا أن يكون هـذا الطفل البائس ، مثال الكثرة الكاثرة : من أطفالنا الأشقياء بأمهاتهم الجاهلات ! فهذه الأزهار الإنسانية النضيرة ، لا تلقى فى المراحل الأولى من أعمارها ، ما تلقاه كلاب الغربيين وقطاطهم ، من ضروب الترفيه والإيناس ! وأحسب أن لهذا أثره البالغ فى أن فتياننا وفتياتنا ، يغلب عليهم اعتلال المزاج ، وفساد الأعصاب ، وحدّة الطبع ، ويشوبهم ضعف الإرادة ، وخور العزيمة ، والنظرة السوداء المتشائمة ، إلى حاضرهم ومستقبلهم ، وهم جدّ معذورين فى ذلك ، فإنّ من لم يسعد فى طفولته ، حرم خيرا كثيرا ، وماتت فيه غرائز صالحة ، وتلوّنت نفسه بألوان قاتمة تصاحبه مدى العمر ، وتجعل الحياة عليه فى كبره عبئا ثقيلا !

ولعلّ هؤلاء الشعارير ، الذين لا ينفكون يصدعون الرءوس بهـذه الألحان الباكية المتفجعة ، والأنات الدامية المحرقة ـ ولم تتقطّع عنهم بعدُ شرائعُ الصبا ـ ضحايا هذه الطفولة التاعسة المنكودة !

وكنت أظن أن إرهاب الأطفال ليناموا رغم أنوفهم ، بدعة مستحدثة ،

(١) من ترنيمات الأمهات والمراضع بصعيد مصر .

فإذا هو مما عمّت به البلوى قديما ، فقد وقفت على كتاب بعث به المهلب ابن أبى صفرة إلى الحجاج [١] ، بعد هزيمة الخوارج بزعامة قطرى بن الفجاءة ، يصوّر فيه حدّة المعركة ، ويصف قوة العدو واستفحال شرّه ، فجاء فيه : « فقد كان َعلِن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ، ونوّم به الرضيع . »

فتنويم الرضيع إذاً بما يستطير له لبّه ، وتذهب له نفسه شَعاعا ، وسيلة عتيقة من وسائل تعذيب الطفولة ، فوارحمتا لكم أيها الأطفال المساكين ! !

غير أننا نقرر ـ والزهو يهز أعطافنا ـ أن أسلافنا العرب ـ نضّر الله وجوههم آباء وأمهات ـ قد قدروا الأثر الحميد لترقيص الطفل وتغنيته ، فى نمو جسمه ، وصفاء نفسه ، وصحة مزاجه ، وسلامة ذوقه ، فلم يحرموه هذه المتعة ، بل قد بلغ من دقة فطنتهم ، أن تعهدوه بالعناية ، وهو علَقة فى الرّحم ، ومن الغريب أن يحدث ذلك قبل أن يخلق فن التربيب الحديث ، والمبادئ النفسية العتيدة بأجيال متطاولة ! وأغرب من هذا ، أن تكون لهم هذه العناية فى العهد الجاهلى ، ولكن لاعجب ، فقد تهدى الفطرة النقية إلى ما يهدى إليه العلم المنظم فى كثير من الأحيان !

يذكرون أن الحجاج سأل ليلى الأخيلية عن ولدها ـ وقد أعجبه ما رأى من شبابه ـ فقالت : إنى والله ما حملته سَهْوًا [٢] ولا وضعته َيتْناً ، ولا أرضعته غَيْلاً ، ولا أَبَتُّهُ َتئِقاً .

ونقلوا مثل ذلك عن أم (تأبط شرا) ، قالت : والله ما حملته وُضعاً [٣]

---

(١) الكامل للمبرد .

(٢) السهو : الحمل فى بقايا الحيض . واليتن بفتح الياء وإسكان التاء : نزول الولد منكساً رجلاه قبل رأسه . والغيل ، كسيف : اللبن الفاسد ، أو الإرضاع قبل حلب الثدى ، أو الإرضاع وقت الحمل ؛ ويزعم أطباء العرب والعجم أنه ضار . والتئق ، كفرح : الممتلىء غضبا . تعنى أنها لم تبته مستوحشاً باكياً .

(٣) وضع ، وتضع ، بوزن قفل : الحمل فى إقبال الحيض وإدباره . والمئق ، كفرح : السريع إلى البكاء ، والهدبد : بضم الهاء وفتح الدال وكسر الباء : اللبن الثخين المتكبد .

وتُضْعاً ، ولا وضعته يَتْناً ، ولا أرضعته غَيْلا ، ولا أبته مَئِقاً ، ولا سقيته هُدَبِدًا ، ولا أنمته تَئِدًا ، ولا أطعمته قبل رئة كبدا .

ويقول أبو الخنساء : سألت فاطمة (١) بنت الخرشب عن بنيها : أيهم أفضل؟ فقالت : الربيع ، لا ، بل عمارة ، لا، بل أنس ، لا ، بل قيس ؛ وعيشى ما أدرى ، والله ما حملت منهم واحدا تُضْعاً ، ولا ولدته يَتْناً ، ولا أرضعته غَيْلا ، ولا منعته قَيْلا ، ولا أبته على مَأْقَة .

هذه بعض عنايتهم بالطفل : فى حمله وإرضاعه وتغذيته وحضانته ، أما بَسْطُه وإنعاشه بالترقيص ، فشأنهم فى ذلك عجيب ؛ فقد كانت تنزيته مصحوبة بأغنيات ، توقظ همته ، وتبعث عزمه ، وتغرس فى نفسه أشرف العواطف ، وتحبب إليه مكارم الأخلاق ، وأقلّ ما فيها ، أنها عفة اللفظ ، سرِيّة المغنى ، عذبة الوقع ، تُونق سمع الطفل ، وتُبهج روحه ، ولا تحمل له غذاء فاسدا ، يبلّد المشاعر ، ويُورث الرخاوة والأنوثة ، وينبّه الغرائز الوضيعة ! : من أمثال تلك الأغانى الرخوة الداعرة ، التى استفاضت فى زماننا الأغبر ! فقد كان الزبير بن العوام ، يرقّص ابنه عروة ويقول :

أبيضُ من آلِ أبى عتيق مباركٌ من ولد الصديق
ألَذُّه كما ألَذُّ ريقى

وكانت هند بنت عتبة الأموية ، ترقص ابنها معاوية ، وتقول :

إن بُنى مُعرق كريمْ محبّب فى أهله حليمْ
ليس بفحّاش ولا لئيمْ ولا بطخرور ولا سئوم

والتئد بكسر الهمزة ، كطرب : المكان الندى (تخشى عليه الرطوبة) والرئة والكبد : ثقلان على معدة الصبى

(١) فاطمة بنت الخرشب : إحدى منجبات العرب الثلاث : وهن حبية بنت رياح الغنوية ، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، وماوية بنت عبد الله التميمية الدارمية ، وتريد بالقيل كسيف : اللبن عند القائلة . والمأقة بفتح الميم وإسكان الهمزة : الغيظ والبكاء .

صخر بنى فهر به زعيم لا يخلف الظن ولا يخيم (١)

وكانت ضُباعة بنت عامر بن قُرطة، ترقص ابنها المغيرة بن سلمة وتقول:

نما به إلى الذرا هشام قرمٌ، وآباء له كرام
جحاجح خضارم عظام من آل مخزوم هم الأعلام
الهامة العلياء والسَّنام

وكانت أم الفضل بنت الحارث الهلالية، ترقص ابنها عبد الله بن العباس، وتقول:

ثَكلت نفسي وثكلت بكرى إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العِدّ وبذل الوفر حتى يُوارى فى ضريح القبر

وهذه الأغنية تنظر من كثب إلى قول هند بنت عتبة، وقد نظر رجل إلى معاوية وهو صغير، فقال: أظن هذا الغلام سيسود قومه، فأجابته هند: ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه!

ويحدث الأصمعى: أنه رأى امرأة ترقص طفلها وتقول:

أحبه حبّ الشحيح ماله قد كان ذاق الفقر، ثم ناله
إذا أراد بذله، بدا له

(الضمير فى ناله: للمال)

ويروى صاحب الأغانى: أن أبا نُخَيْلة الرجاز، تزوج امرأة من عشيرته فولدت له بنتا، فغمه ذلك فطلقها تطليقة، ثم ندم فراجعها، فبينما هو فى بيته يوما، إذ سمع صوت ابنته — وأمها تداعبها — فحركه ذلك ورق لها، فقام إليها فأخذها وجعل ينزّيها ويقول:

يا بنت من لم يك يهوى بنتا ما كنت إلا خمسة أو ستا
حتى حللت فى الحشا وحتى فتّت فى القلب جوى فانفتا
لأنت خير من غلام أنتا يصبح مخمورا ويمسى سبتا

(١) يخيم: يجبن، ويحتمل أن يكون يخيب أبدلت الباء ميما كما قالوا: طين لازم ولازب.

وفى نوادر أبى زيد : أن قيس بن عاصم المنقرى ، أخذ ابنه (حكيما) — وأمه منفوسة بنت زيد الفوارس بن ضرار الضبى — فرقصه وقال :

أشبه أبا أمك أو أشبه عمَل[1]   ولا تكونن كهلَّوف[2] وَكَل
يبيت فى مقعده قد انجدل   وارق إلى الخيرات زَنْأً[3] فى الجبل

فأخذته أمه وجعلت ترقصه وتقول :

أشبِهْ أخى أو أشبِهَنْ أباكا   أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصُرُ عن مناله يداكا !

ومن الطرائف الشهية : ما ذكره القالى فى أماليه ، قال :

دخل النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو صبى — على عمه الزبير ، فأقعده فى حجره وقال :

محمد بن عَبْدَمْ   عشتَ بعيش أنْعَمْ
ودولة ومغنم   فى فرع عزّ أسنم
مكرم معظم   دام سَجِيسَ[4] الأزلم

ثم دخل عليه أخوه العباس بن عبد المطلب — وهو غلام — فأقعده فى حجره وقال :

إنّ أخى عباس عَفّ ذو كرم   فيه عن العوراء[5] إن قيلت صمم
يرتاح للمجد ويوفى بالذمم   وينحر الكوماء[6] فى اليوم الشَّبِم
أكرم بأعراقك من خال وعم

(١) يريد عملى . أو عمل : اسم رجل كما فى اللسان .
(٢) الهلوف : الهرم المسن أو الكبير اللحية ؛ والمراد به هنا الأول .
(٣) زنأ فى الجبل . كابد الصعود فيه .
(٤) أبد الدهر .
(٥) العوراء : الكلمة القبيحة ، ويقال فى ضدها : العيناء ، أو سالمة العينين .
(٦) الناقة السمينة .

ثم دخل عليه أخوه ضرار بن عبد المطلب ـ وهو أصغر من العباس ـ فقال:

ظنى بمياس ضرارٍ خير ظن   أن يشترى الحمد ويُغلى بالثمن
ينحر للأضياف ربات السمن   ويضرب الكبش إذا اليأس ارجَحَنْ[(١)]

ثم دخلت عليه بنته أم الحكم، فقال:

يا حبذا أم الحكم   كأنها ريم[(٢)] أحَمّ
يا بعلها ماذا يَشَمّ ؟!   ساهم فيها فَسَهَمْ

ثم دخلت عليه جارية له، يقال لها: أم مُغيث، فقالت: مدحت ولدك وإخوتك وابن أخيك، ولم تمدح ابنى مغيثا! فقال: علىّ به، عجليه، فقال:

وإن ظنى بمغيث إن كَبِرْ   أن يسرق الحج إن الحج كَثُرْ
ويوقر الأعيار[(٣)] من قِرْفِ الشجر   ويأمر العبد بليل يعتذر[(٤)]

على الجندى

(١) المراد بالكبش: رئيس القوم. وباليأس: الحرب. وارجحنت: استدارت وثقلت.
(٢) الريم والرئم: الظبى الخالص البياض، وأحم: يراد به أسود المقلتين.
(٣) الأعيار، جمع عير. الحمر. وقرف الشجر (بكسر القاف وإسكان الراء): قشرها.
(٤) يعتذر: يصنع العذيرة، وهى طعام من أطعمة الأعراب، وهى كذلك طعام الختان.

تحيـــة الربيــع

بقلم عبد الرحمن على

المدرس بمدرسة المنشاوى باشا الابتدائية للبنات بطنطا

وسائلة : مابالك اليوم باسما يكاد السنى من وجهك الطلق يقطر
تحث مطاياك السراع بلا ونًى وثغرك بسام ووجهك نَيِّر
تُرى أين مزجاها؟ إلى أين تنتهى؟ أشاقك ظبى أدعج الطرف أحور؟
فأنت وإياه على خير موعد وذاك مدى ماترتجيه وتؤثر!!

***

رويدك ياليلى، وحقك إننى على العهد لا ألوى ولا أتغير
سلى قلبك الخفاق، يخبرك بالذى يكِنُّ فؤادى من هواك ويضمر
فمازلت عبد الحب، إن يدع استجب مطيعاً لما يملى علىَّ ويأمر
فلا تذهبى ياليلَ فى الظن مذهبا أخاف على ليلاى منه وأحذر
فما أنا ممن تستبيه غواية ويصرفه عن حبه العف مظهر
وهبتك ياليلى فؤادى، وكيف لى أصرف مالا أقتنى أو أغير
ولكن دعانى من بنى الثغر علية كرام، إذا نودوا أجابوا وشمروا
يقيمون للنيروز حفلا مباركا تُعدُّ مزاياه العظام وتذكر
فان تلهمينى يأتنى القول طيعاً ذلولا، فلا أكبو ولا أتعثر
وما كنت وصاف الرياض لأنها ورود ونسرين وآس وعبهر
ولكنها ـ والزهر يملأ ساحها أريجا، ويغشاها الندى فتنور ـ

تحاكيك يا ليلى، جمالا وفتنة وأنت لعمر الحق أبهى وأبهر
ففيك وفى النيروز أزجى قصائدى فإنكما أولى بشعرى وأجدر
فلله أيام الربيع بواسما تعج بآيات الجمال وتزخر
تهلل وجه الأرض فابتسمت له زهور الأقاحى الغض والنيلوفر
وعادت به الدنيا عروساً تبذلت عليها من الديباج ثوب معصفر
كأن زهور الياسمين إذا هفا يغازلها ذاك النسيم المعطر
فتحجبها الأغصان حينا وتارة تَـكَشَّفُ عنها مائلات فتظهر
موائسُ يحذرن الرقيب فتختفى حيـاء ويغريها الدلال فتسفر

***

ترى عصب الأطيار فوق غصونها ترتل آيات الدلال وتصفر
تقيم على الأفنان ترسل سجعها هديلا، ويزهوها الجمال فتنفر
وتسمع بين الأيك رجع غنائها فتبعث فيك الذكريات وتنشر
وتسمع والصبحَ المبكرَ شدوها فمَنْ معبد؟ ما عوده؟ ما المزهر؟

***

رعى الله أياماً نهلت نعيمها بريف (شبين الكوم) أزهو وأفخر
نشأت به مستلهماً وحى شعره وفى الريف آثار من الخلد تبهر
وفى الريف -لو تدرى- جمال وفتنة ترى دونه حسن الحواضر يصغر
فذلك صنع الله (جل جلاله) وهذا صنيع الخلق والخلق مقصر
وشتان ما بين الصنيعين فى الورى لَصُنْعُكَ يا ربى أجل وأكبر
حقول حباها النيل فيض نمائه فتربتها مسك ذكى وعنبر
فلله نهر النيل لازال فيضه سلاما، يعم الواديين ويغمر

أبا مصر، كم أوليت مصر وأهلها أيادى تروى بالفخار وتذكر!
لقد عرفوا قدما أياديك بينهم فكنتَ إله الخير ترجى وتقدر
فإن كنت يامصر العزيزة جنة فنيلك فياض الموارد كوثر
حرام علينا أن نـنام وبيننا مكايد للنيــــل السعيد تدبر
وعار علينا أن نعيش أذلة نسام صنوف العسف لانتثور
وعار علينا أن يصرف أمرنا دخيل، فيقضى مايشاء ويقـدر
فعيشوا كراما ناهضين أعزة وإلا فبطن الأرض بالحر أجدر!

عبد الرحمن على

قصة الخير والشر :

إبليس يتوب . . . !

بقلم محمد سعيد العريان
المدرس بمدرسة شبرا الابتدائية للبنات

« . . . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ؛ ولذلك خلقهم . . » قرآن كريم

اِطَّلع إبليسُ ذاتَ مساءٍ على الأرض ؛ يَسْتَرْوِح من نسمات الليل - والدنيا نائمة - رَوْحَ الفردوس الذى طردته الكبرياء منه . وانبثّ زبانيتُه ينفثون الشرّ عن أمره فى أوكار الظلام : ففى كل منعطفٍ شيطانٌ صغيرٌ يتربَّص ، وبين كل اثنين ثالثٌ لا يريانه . . .

وسمع إبليسُ فى هَدْأة الليل عابداً يتهجّد ، ما يبدأ ولا ينتهى من سجدةٍ إلا لَعَنَ الشيطان . . . !

وأحسّ إبليسُ لعناتِ الشيخ العابد تنصبُّ عليه كما ينهال التراب على نار تتلهّب ، أو ينصبُّ الماء على جمرةٍ تَوَجّ !

وصَرّتْ أسنانُ الشيطانِ من الغيظ ، وانقدح من حِجاجيْه شَرار كاللهب ، أن عجزَ وعجزتْ زبانيتُه معه عن فتنة مثلِ هذا الشيخ الزاهد ، وإرادتِه على أن يتعلّق بحظه من الدنيا وشهوات النفس ، على حين لم يعجز الشيطان أن يطرد أباه من الجنة

أفكان يعصم الشيطانَ من اللعنات أن يسلِّطَ على الناس جميعاً شهواتهم ، ويغرى بهم أنفسَهم ؟ فكيف وإن عبادَه من أهل الغواية والمعصية ليذكرونه

باللعنة على مقدار ما يُيَسِّر لهم شهواتهم ويضاعف لهم مسرّاتِها ؛ وإنهم ليسرعون إلى لعنته إسراعهم إلى طاعته . . . ؟

وهبَّت نَسْمَةُ السَّحَرَ تعطِّر الدنيا بأنفاس الجنة ، فاسترْوَحَ منها إبليسُ رَوْحَ الماضى يُذكِّره أيامه كلها منذ بدء الخليقة ، ويُلقِى التاريخ بين يديه . وتَغَشَّتْه الذكرى ، وعاد الزمان القهقرى أمام عينيه ؛ فإذا هو مَلَكٌ بين الملائك يُسبِّحون بحمد ربهم حافِّين من حول العرش ؛ ثم إذا هو يفسق عن عن أمر ربِّه أبيًا مستكبراً أن يسجد لبشرٍ من طين ؛ وإذا هو من بعدُ مطرود من رحمة الله ، مذموم مدحور يلعنه الفضاء ويسبُّه الأبد ؛ ثم ينفث نفثتَه فى صدر حوّاء فيزلها وزوجها عن الجنة فيخرجهما مما كانا فيه ، ويتعقَّب أبناءهما من بعدهما على الأرض ، يَصنع منهم حطبَ جهنم ، فما بَشَرٌ من الناس إلا شيطانُه يسعى بين يديه . . .

ثم هو فى موقفه ذاك ، تتناثر من حوله لعناتُ الناس ، سواء منهم طائعه وعاصيه ؛ وتصكّ أذنيه من مكانٍ سحيقٍ زفراتُ عباده فى نار جهنم ، تُكْوَى جباههم وجنوبُهم بما أغواهم الشيطان وأضلهم سواء السبيل . . . !

ولأولِ مرة استشعر إبليسُ لَذْعَ الندم ، فدمعت عيناه . . . !

يا لها من سخرية . . . إبليس يتوب . . . ! لقد كفاه ما اقترف منذ هبط من السماء انتقاماً لكبريائه التى زعمها دِيسَتْ يوم أُمرَ أن يسجد لصلصالٍ من حمأٍ مسنون !

أكانت توبةً نصوحاً ، أم مبالغةً فى الانتقام ، أم هو يشتهى أن يعيش بشراً بين البشر عمراً من عمره ، ليذوق بعضَ لذّات البشرية ، ويرى بعينيْ حسِّه كيف يفتتن بها الناس جميعاً منذ كانوا فتسرعُ بهم شهواتهم إلى طاعة الشيطان . . . ؟

٭٭٭

وطلع إبليسُ على الأرض فتًى وسيما ، يمشى على قدمين مَشْىَ الناس . وشعر

لأوّل ما لبستهْ البشرية ُ أنه جائع . فعاجَ على ندىٍّ ساهرٍ له به عهد ، لأنه هو الذى أنشأه وأقامه حَجَراً على حجر ، وطالما قضى فيه الليالىَ ذواتِ العدد من حيث لا يراه الناس ؛ ينفث الشر ، ويبذر بذور الخطيئة ، ويفتنّ فى وسائل الإغواء . . .

كانت مصابيح النَّدِىّ ترمى أضواءها إلى بعيد ، وتَمُدُّ من أشعتها شَرَكاً يَصيد الناس ويأخذ عليهم طريقَهم ؛ وكان كلُّ ما ينبعث منه يُشعر أن هناك حركةً وعملا يغريان من يلتمس إرضاء شهواته . . .

ولكن . . . ولكن ها هو ذا إبليس يصعد الدَّرَجَ فى أناةٍ ورفق ، ويدفع الباب فى هدوءٍ وخفة ، ويخطو إلى البهو فى سكون وحذر ؛ فيرى . ولكنه يرى أجساداً لاتكاد تتحرك ؛ ويسمع ، ولكنه لايسمع إلامثلَ أنفاس النائمين ؛ ويشهد ، ولكنه لايشهد إلا عيوناً مُحدِّقة فى الفضاء تتأمل . لم يكونوا سكارى ولا مُغَيَّبين ، ولكن فكرة واحدة كانت تُسيطر عليهم جميعاً ، فكرةً بين السخط والرضا ، وبين الندم والاستغفار !

وجلس الشيطان إلى مائدة وحده ، وطلب طعاماً ، وراح يدير عينيه فيما حوله ومن حوله ، ويتسمّع نجوى الضمائر الخفية فى أعماق أصحابها .

ورأى مائدة خضراء مبسوطة ، قد تناثر عليها هنا وهاهنا نقدٌ وورق ، ورأى كئوساً فارغة وممتلئة ، ورجالا ونساء قد تحلّقوا حول المائدة ، ذراعاً إلى ذراع ، وامرأةً بين كل رجلين . . . ولكن يداً واحدة لا تمتدّ إلى شىء ، وفماً واحداً لا ينبس بكلمة . . .

وأبصر رجلا يهتز فى موضعه هِزة خفيّة وهو يتحدّث الى نفسه : كيف يصنع وقد فقد كل ما كان معه من نَقْد ؟ إنه ليرى ماله أمامه على المائدة ، ولكنه ليس من حقه ، لأن حظه فى اللعب قد قضى به لغيره ؛ هو قضاء غير مشروع ، ولكنه حُكْم العرف فما عليه إلا الطاعة ! وقالت له نفسه : ما أنت والقمار ؟

شدَّ ماانهيتَـك فلم تنته ! الآنَ فذُقْ ألم الحرمان مما تملك ، فلعلك لاتستمعُ إلى إغواء الشيطان من بعد . . .

واختلج إبليسُ حين ذُكِرَ اسمُـه اختلاجةً كادت تنم عليه ؛ وهمَّ أن ينهض . لولا أن أقبل النادلُ(١) عليه بالطعام .

وشُغِل إبليس لحظة بالأكل ، يزدرد اللقمة بعد اللقمة ، يكاد لايحرّك بها فكيه ؛ وعرف لأوّلِ ماذاق الطعام ـ لماذا كانت شهوة البطن أوّلَ همِّ الإنسان. . .!

وعاد ينظر إلى وجوه الناس وضمائرِهم ، فما راعه إلا هـذا المقامرُ الرابح محدِّقاً فى الفضاء يتفكر ، وإن وجهه لتتعاقب عليه شتى ألوانِ الندم والخزى والحياء . . . ثم لم يلبث أن نهض يجمع المال على المائدة فيفرِّقه فى سُمّاره وهو يقول : « معذرة ياصحابتى : فإنما هو ما لكم ، ليس لى حق منه فى شىء ، وما لعبت لأَسلبكم ما تملكون ، إنما أردتُ السلوة وإزجاء الفراغ ... » وعضَّ على شفته واحمر وجهه ؛ إذ كان يعلم أنه يكذب فى اعتذاره ؛ فما كان ليقامر إلا مؤمِّلا أن يربح ، وما كان ليربح مرة إلا وهو يعلم أنه يأخذ مالا يملك ؛ وقد ربح الليلة ، ولـكنه حين ضم يديه على المـال أحس كأَنه يقبض على جمر ؛ ورفَّتْ به سانحةٌ من الخير ، فتعفف أن يأكل مالَ الناس، فخرج عنه لأَهله . . . !

ونظر الرجلُ إلى يمين ، فإذا صاحبته مطرقة قد تغرغرت عيناها ، فمـال عليها وهو يهمس :

« أيكون قد أغضبك ما فعلتُ يا سيدتى ؟ »

قالت المرأة : « عفواً ، ليس لى شأن بذاك . ولـكن أمراً يقتضينى أن أعود مسرعة إلى الدار . . . ! »

وهبَّت واقفة ، فقال الرجل : « خير . . . ! أتأذنين لى أن أصحبك ؟ »

قالت : « شكراً . . . ! »

وسارت فى طريقها فما ألح الرجل ولا تعوَّقت المرأة ؛ ومالت إلى غرفة فى

---

(١) النادل واحد الندل (بضمتين) : وهم خدم الدعوة ، والمطعم ، والقهوة .

الندِيَ تأخذ زينتها فى المرآة . فأدركتها صديقة، ونظرت كل منهما فى وجه صاحبتها فأطالت النظر ؛ فأحستا معنى من معانى الندم لم تستشعره إحداهما من قبل ، فأطرقتا لا تنبسان . . .

أرأيت إلى المجرم إذ يُفْجَأ وهو يقارف جريمة منكرة ، فليس يملك أن ينكر ولا أن يعتذر ...؟

وعاد نظر المرأتين فالتقيا ، فإذاهما تتعانقان وقد أجهشتا باكيتين ؛ وأطفأت دموعُ الاستغفار وَقْدَ النار ولذع الندم ، فكأنما حلّت فى جسد كل منهما روح جديدة ، قد خرجت من الجنة لساعتها ، لم تتعلق إثماً ولم تجترح معصية . . .

وتلفّت إبليس فاذا الندى مقفر خال ، ليس فيه إلا النُدُلُ يسعون بين الموائد الخالية ، يرفعون الأوراق والأقداح ، ويصفّفون الكراسى والمناضد .

وتنفس الصبح ، فأبدل إبليس ثياباً بثياب ، وانطلق فى تُبّانه وبرنسه إلى سيف البحر(١) ، يستمتع هنالك مايستمتع البشر ، ويملأ عينه وقلبه من مفاتن دنيا الناس ، لقد كان له فى البحر معهد يرتاده زبانيته، يعلمون الناس السحر ، وينصبون شرك الفتنة ؛ وهو ذا البحر ؛ فأين فتنته وسحره ، وأين مباهجه التى كانت ؟ أين الأجسام البضة ، والأذرع الغضة ، والسيقان اللفّاء ، وأين العيون التى ترمى فتُصْمى ، وأين لآلىء البحر تغوص وتطفو ، وأين الزبد الأبيض يلاطم الزبد الأبيض ؟

لقد خلا البحر من عرائسه ، إلا عجوزاً مقرورة مستلقية على الشاطىء ، مايبدو منها إلا عينان كصدفتين تبرقان فى كومة رمل ! وهذه فتاة تمشى على استحياء ، مستندة إلى ذراع أخيها ، فما تعرَّتْ من برنسها إلا ليسترها الماء ، وهذا رأس رجل يبدو سابحا من بعيد ، مايكاد يرى الفتاة حتى يتنكّب عن الطريق لئلا تتأذى منه الحسناء السَّبُوح .

وأحس إبليس أول آلام البشرية ، فى الوحدة والفراغ والضجر ؛ فمضى على

---

(١) التبان : سراويل البحر . والسيف (بكسر أوله) : البلاج

وجهه ممتلىء النفس ، فارغ الفؤاد؛ لقد ودّع عالَـمه الموحش تحت الرغام ، ليظفر بالأنس فى عالم البشرية ، فما ظفر إلا بالوحشة وألم الشعور بالحرمان ؛ وخلع عنه شيطانيّته تائبا ، ليهب للناس الاستقرار والسلام . فما لقى هو فى بشريته إلا الاضطراب والألم !

° ° °

واطمأنت الحياة بالناس ، فاجتمعوا على الرضا والطاعة ، فى حال شرٌ منها السخط والعصيان ؛ إذ لم يكن ثمة عدوانٌ يدعو إلى المقاومة ، أو تربُّصٌ ينبِّه إلى الحذر ، أو كيد يستتبع الحرصَ واليقظة ؛ وعاد كل فرد أمة وحـده ، يعيش فى رضا وقناعة على أكمل ما يكون الانسان صلاحاً وحباً للخير ؛ ولـكن الجماعة لم تجد مايشد وحدتها ويربطها آصرة إلى آصرة .

ودب النعاس إلى أجفان الحياة ؛ فمات الطموح ، لأنه باب من التكبر ؛ وخمد النشاط ، لانه جهاد فى غير عدو ؛ واستنام الناس إلى القدر ، لأن التمنى ضرْب من الأثرة ؛ وعاش نصف الناس عيالا على نصف الناس ؛ فليس ثمة عمل للشرطة والجيش ورجال الحكم ، وأنّى لهم أن يعملوا مادام لاسرقة ولاقتال ولاعدوان ؟

وكسدت سوق القَفّال والزرّاد والصَيْـقل والرَمّاح ، وما حاجة الناس إلى الأقفال والدروع والسيوف والرِّماح ؟

وقال فتى لصاحبه : « قد آن أوان « مولد » الولى العارف بالله . . . » فأجابه صاحبه : « دع عنك ياصديقى ، وتعال نلتمس نزهه فى غير ساحة هذا المولد ، فما لنا ولهذه المهرجانات التى لاتجتمع إلا على شر ، ولا تحشد الناس إلا لمعصية ؛ حسبى أن أعمر قلبى بذكر الله وأتخذ أولياءه قدوتى وإمامى . . . »

وأمّن صاحبه على قوله ، ولـكن البدال ، والبقال ، والبزاز ، وبائع الحمص ، وصانع الحلوى ، ومدير الملهى — لم يعرفوا لماذا هجر الناس المولد ؛ فمضى الموسم وما باعوا ولا اشتروا ولا تعوّضوا ، وقوض كل منهم خيمته ومضى غير مأجور على جهاده !

وقال بعضهم لبعض : «أترون النـاس قد نسوا أولياءهم فتمردوا على ما اعتادوا ؟»

فأجاب شيخ كبير : «ذلك من عمل الشيطان . . . »

وأراق الخمارُ أحمرهُ وأصفرهُ وهو يقول: «ليت خمرى كانت خلاً ...!»

وجلس قاضيان يُداولان بينهما الرأى :

«أيهما خير : أن تعيش الفضيلة وحدها على الأرض ، أو تنبتَ بين أشواك الرذيلة والمنكر والشر ، فيكون للإنسانية منها أفراح ثلاثة : فَرَحُ النفس المؤمنةِ بها ، وفرحها بالصبر على المجاهدة لها ، وفرحها بالظفر بعد مشقة الجهاد ...؟»

ونظر شيخ من الزهاد فى صحيفة أعماله ، فإذا هى بيضاء أو كالبيضاء ؛ وهل يضاعف الأجرَ إلا المقاومة ؟ أمَا لو أن عابداً قضى الدهرَ كله راكعاً ساجداً ، ما عدَل أجرُ عبادته كلِّها ثوابَ ساعة لشاب تتجاذبه شهواتُ الدنيا ، كلما هفَتْ نفسُه إلى معصية ردَّه عنها الإيمان والتقى ، فهو أبداً فى مجاهدةٍ لا يهدأ ، وهو أبداً مأجور أجراً لا ينتهى !

وإنما يقظة الحياة فى الجهاد والمقاومة ، وتوقُّعِ ما يأتى به الغدُ على شتَّى ألوانه ؛ فإذا عُدم الجهاد ، وفُقدت دواعى المقاومة ، وعاش الإنسان لساعته التى هو فيها – أعمى أو كالأعمى لا يُبصر ما أمام – فقدت الحياة معناها الأسمى ، وعاش الناس فى هدى أشبهَ بالضلال ، وفى فضيلة شرٌّ من الإثم والفسوق والعصيان !

ليتك تدرى أيها الزارى على القدر . . . ! هل تُستَوْقد النارُ إلا بالحطب ؟ فمن أين لك ، ما دمتَ تشفق على الغصن اليابس والهشيم الجافّ !

هل يعلم الفسَّاق والعصاة من بنى آدم ، أنهم قبـل أن يكونوا فى أخراهم حطب جهنم – كانوا فى دنياهم سلم البشرية إلى مثلها الاعلى . . ؟

وتثاءب الشيطان وتمطى إذ أدركه النعاس الذى ضرب على عيون البشر ، وإذا هو وقد خضع لناموس البشرية ، قد ناله ماينال الناس من الضيق والملل وتقلُّب الرأى ، إذا تقلقلت دنياه طلب الاستقرار ، فإذا استقر عاد ينشد الحركة ويتبرم بالسكون . . . !

وقلّب وجهه فى السماء كاسفاً محزوناً ، ثم أسند رأسه إلى راحته ، وجلس يتفكر . . .

أىّ خير كان يقدّم هو للجماعة البشرية ، على حين كان لايبغي إلا الكيدَ والانتقام؟ هذه الدنيا تنام بعد يقظة ، وتسكن بعد حركة ، وتسترخى بعد نشاط ؛ لأنه هو قد بطل سحره ، وإذ لم يبق فى الدنيا شر ، مات فى الجماعة روحُ الانبعاث إلى الخير . . . !

أيها الخالق العظيم ، ما أعجب تدبيرك وأدقّ حكمتك ! خلقت الشر والخير يصطرعان فى هذا العالم لتوجد منهما الخير الأعظم ، وأنا ـ أنا الشيطان المشئوم ـ حسبتُنى يوماً أكبرَ مما أنا ، حين ذهبت أهدِّم ماتبنى ، وأعصى ما تأمر ، وأدعو إلى ماتنهى ؛ فلما آذنتَ أن تذلّ كبريائى ، أرَيْتَنى نفسى إلى جانب عظمتك . فإذا أنا ـ أنا الذى زين له الغرورُ يوماً أنه أكبر من أمرك ـ إذا أنا أعصى عصيانى فى طاعتك ، وأفسد إفسادى لإصلاح عبادك ، على قَدَر منك وتدبير حكيم . . .

وشعر الشيطان بالخيبة تلاحقه فى كل مكان ، فلا هو هناك ـ فى عالمه الشيطانى ـ كان موفَّقاً فيما يحاول الانتقام من بنى آدم ، ولا هو هنا . . .

وعاودته نزغة شيطانية ، لم يلبث أن قمعها فى صدره وانطلق فى سبيله .

٭٭٭

وانتهى إلى البستان المعشَوْشب المخضلّ ، وقد نال منه الاعياء ، فارتمى على العشب الرطب يستريح فى ظلٍّ وارفٍ لفّاء ، وطلع له من بين ملتفّ الحدائق حسناء وضّاءة ، تمشى كما يهتز الغصن ، وترنو كما يبتسم الزهر .

وأحس إبليس مرة أخرى ، أن قانون البشرية يعمل فى دمه وأعصابه ، وأطال النظر إلى الحسناء الفاتنة ، ثم أطبق عينيه وهو يتأوّه ، كأنما توهم أنه قد احتوتها أجفانه ، وشعر بمسّ الحب فى قلبه ؛ فأشرق وجهه بابتسامة هادئة ، فيها لمحة من السرور ، وغيرُ قليل من الألم .

وجلست الحسناء جلستها على العشب غير بعيد ، وضمّت إليها أطراف ثوبها يستر شيئاً ويكشف عن شىء ، مستأمنة مطمئنة .

وخطا إبليس خطوتين إلى حيث جلست يسألها شيئاً ، فاستحيت حواء الصغيرة ، وأرختْ فَضْلَ ثوبها على الوجه الفاتن ؛ ووقف إبليس ينشد قصيدة غزَل طويلة ، وَعَتْها حواء كلمة كلمة ، ومعنىً معنى ، ولكنها لم تنبس ، ومد إليها يداً يستنهضها فما نهضت ، وازوَرَّتْ عنه معرضة ، وسكت ، ولكن عينيه ظلّتا تتحدثان حديثهما . . .

واربدّ وجه المرأة من غضب ، فما رأى إبليس غَضْبَتَها إلا فناً جديداً من فنون جمالها ، فقالت وقد ضاقت به : « إليك عنى يافتى وخلّ سبيلى . . . ! »

وضاق صدرُ الشيطان بهذه الإنسان العنيد ، وثقل عليه أن يعجز عنها وهو هو !

كم فتاةٍ وامرأة قبل صاحبته تلك ، كانت من عباده وأتباعه ، ما تأبّت واحدة منهن على ما أراد لها ؛ على أنه اليوم يريدها لنفسه هو ، فليس به اليوم حاجة لأن يسعى لغيره وقد خلع عنه شيطانيته . . . !

ماذا . . . ! أيعيش هذه الآلافَ من سِنيه الماضية يتحكم فى البشرية كلها ، ويملى إرادته ، ويسعى بين الناس ، ويَصِل بين الأحباب ، ويقدم الثمرة لكل من يشتهيها ؛ حتى إذا اشتهى هو أن يذوق تلك الثمرة ، أعجزه أن ينالها . . . ؟

وللمرة الثانية منذ خُلِق ، شعر أن كبرياءه جريح . . . !

لقد أبى أن يسجد لأبى البشرية كلها وفسق عن أمر ربه ، أفتفسق عن إرادته امرأة ؟ وما هو إن لم يغلبها على نفسها ؟ وما هى حتى تتأبى عليه كل هذا الإباء ؟

وعاوَد احتيالَه يستجدى الحسناء بعض الرضا ، فولّت عنه معرضة مستكبرة ، ومضتْ تدوس بقدميها الصغيرتين قلب إبليس . . . !

وعاد إلى نفسه يستلهمها الحيلةَ فما أمدّته بشىء ، وبدا إبليس فى بشريّته إنساناً ضعيفاً قليل الحول ، لا قدرة له على التصرف ، ولا طاقة له بالاحتمال . . . !

ووجد له شغلا من فراغ . . . وَعَدَا خلف المرأة يحاول أن يدركها ، مايبالى نظرات الناس ، فإذا زوجُها يلقاها على الطريق ، فيصحبها إلى الدار يداً فى يد ، وجنباً إلى جنب !

وأحسَّ إبليسُ - فوق ألم الحب الذى يجد - ألماً جديداً من آلام البشرية ، وقذف منظرُ الزوجين المتحابَّين فى قلبه الحسد . . . !

وآدَه العجزُ والشعور بالحرمان ، فعاودتْه شيطانيتُه ثائرةً مُحْنقة ، على أنه وقد ذاق بعض لذات البشرية فى آلامها ، لم يكن يريد أن يرتدّ إلى عالَمه ؛ إنما كان حَسْبُه أن يستمد الحيلة من طبيعته الأولى ، ليظفر بمن يحب ، وهو باق فى بشريته !

ولكنه - وا أسفا ! - لم يستطع أن يكون شيطاناً ورجلا فى وقت معاً ، وحين ألهمته طبيعتُه الأزلية بالرأى ، فقذف فِكرتَه فى قلب المرأة - كان خَلْقاً آخر ليس من البشرية ولا حظّ له من المرأة ، ونظرت الحسناء إلى وراء تفتقد عاشقَها المدنف فما رأته ، وما كان لها أن تراه وقد عادشيطانا لا يخضع لنواميس هذا العالم ؛ ورآها هو تنظر متلهفة مشتاقة ، فما نالته نظرتُها ولا مسّتْ قلبه ، لأن إحساس البشرية ونوازعها كانت قد فارقته حين لبس جناحىْ شيطان . . . !

وكُتِب فى تاريخ الأرض ، أن إبليس قد تاب مرة ، ولكن ردّته إلى شيطانيته امرأة . . . !

شبرا — محمد سعيد العريان

Pompey The Great[1] بومبي العظيم

تأليف جَنْ مِسْفِيلد John Masefisld

ترجمة محمد على مصطفى

المفتش بوزارة المعارف

٣

الفصل الثالث — المنظر الأول

على ظهر سفينة رومانية قديمة فى المياه
المصرية بالقرب من ثغر رشيد

الحادى : أقرىء السلام قيصر الهمام بهجة الأنـــام مالك الأمم

البحارة : أقرىء السلام . . . الخ

الحادى : ما لنا نسير فى اليم الخطير مع بومبي الكبير مخذول العلم؟

البحارة : أقرىء السلام . . . الخ

الحادى : فاثبت فى الديار واترك البحار وجَوِّبَ القفار تحظ بالنعم

البحارة : أقرىء السلام . . . الخ

الربان : (بشفقة) ياغلام ، هل تعرف ذلك الثغر الذى نراه الآن على كثب ؟

الغلام : لا ياسيدى .

الربان : هذه « بلوزيم » (رشيد) من أعمال مصر ، وهذا النهر الفضى هو النيل .

الغلام : أهنا يقيم ملك مصر يامولاى ؟

(١) راجع العدد الثالث من السنة الثانية ص ١٦١ .

الربان : (مشيراً) إن بطليموس الملك الغنى يعيش فى هذا المكان، حيث الجنود محتشدة ، ولقد بعث إليه پومپي برسالة بعد أن هزمه قيصر .

الغلام : لمَ يأتى إليه پومپي ياسيدى وهو صبى لم يبلغ الحلم ؟

الربان : إنه لم يجلس على عرش الملك إلا بمساعدة پومپي له، وهنا كثير من الجنود القديمة التى كانت تحت علمه فى آسيا .

الغلام : ما أكثر هذه السفن يامولاى !

الربان : (خائفا) إن عددها لكبير .

الغلام : أظن أنها سفن حربية ، انظر إلى تلك الزوارق الكبيرة ، ألا تسمع الأبواق يامولاى ؟ هل تدعو العبيد ؟

الربان : (وقد وضع يده على جبينه يسترعينيه من وهج الشمس) أذلك الزورق الذى نراه آت من سفينة العلم ؟

الغلام : نعم ، أنهم مهرة فى التجديف ، وهم يقربون منا بسرعة .

الربان : أسرع وضع الحبال الحمر الجانبية فى منافذها (يفعل الغلام ما يؤمر)

الغلام : أظنهم ينادوننا .

صوت : أيها البحار ، أيها البحار .

الربان : نعم ، نعم .

الصوت : ما هذه السفينة ؟

الربان : « الحظ السعيد » من قبرص .

الصوت : هل يكون معكم على ظهرها السيد العظيم والمولى الجليل پومپي ؟

الربان : نعم، ولكنه الآن فى حجرته . (سكوت)

الغلام : يظهر أنهم يتكلمون معاً يامولاى !

الصوت : متى تركت قبرص ؟

الربان : (بذلّة) تركتها ظهر أمس ياسيدى . (سكوت)

الصوت : لا ترسل أى زورق إلى الشاطىء .

الربان : سمعاً وطاعة .

الغلام : يا مولاى ، إنهم يرجعون الآن إلى سفينتهم .
الربان : عجّل وأد التحية ، وأشر بالعلم الخلق، ثم انزل لترى هل استيقظ مولاك؟
(ينظر الربان إلى السفن المصرية ثم يحرك رأسه) : هذه أمارات مشئومة ، وليتنا بعيدون عن هذا المكان !
الغلام : لقد استيقظ يامولاى .
الربان : (بشفقة) آه ! إنك متى رجعت إلى وطنك فستجد أهلك أنك كنت مع يومپى على ظهر سفينة واحدة .
الغلام : نعم ياسيدى .
الربان : لقد نتج هذا من أنك بحار .
الغلام : أتسمح لى ياسيدى ؟
الربان : نعم يا غلام .
الغلام : ما اسم هذا الجبل ؟
الربان : هذا جبل كشيس ، ويقولون : إن ملكا من الملوك سيموت فيه . ماذا يفعلون على ظهور هذه السفن ؟ إنهم يملئونها بالجند تأتى إليها فى الزوارق (يضرب الجرس مرة) أيها الرفيق .
الرفيق : (بعيد عن النظر فى أسفل السفينة) نعم يا سيدى .
(يدخل الرفيق)
الربان : تعال أيها الرفيق ، أما أنت أيها الغلام فاذهب إلى الأمام ، ولا تصغ إلى شىء مما نقول ، وإذا كنت تود أن ترى والدتك فاضرع إلى الله ؛ عل الملك بطليموس يسمح لك . (يخرج الغلام) ، أيها الرفيق : (برزانة) إن حالنا خطرة ، ولقد ألب هؤلاء العبيد الملك على يومپى فهو لا يحتاج إليه . أترى هذه السفن ؟ إنهم يستعدون لإغراقنا ، فإذا شاهدتهم فى طريقهم إلينا فاقطع حبل الأنجر ولا تنتظر الأوامر ، اقطع الحبل وأقلع .
الرفيق : سآخذ العدة لذلك يا مولاى .
الربان : إن ذلك شىء يستفز غضب الحليم ، فلقد كنت ترى أولئك القوم منذ

أسبوع يتملقون بومبي ، ويتمنون لو أتيح لهم أن يقبلوا نعل خادمه ، ولكنهم الآن يطردونه من بلادهم .

الرفيق : يقولون : لاتنتظر جزاء ولا شكورا من ملك ، والدنيا واسعة ، والممالك كثيرة ، ومصر مثقلة الكواهل بالأمور الداخلية ، ولست أفهم ما الذى حدا بومبي إلى هذه الديار ؟

الربان : لقد أساء الدهر إليه ، وتوالت المصائب عليه فأذهبت رشده ، فهو لا يدرى أين يتوجه ، هذا أن الى زوجه معه !

الرفيق : لقد كان يجب أن يحضر ، ومعه أسطوله ؛ حتى لا يظهر بمظهر التسول والذلة والخضوع . هل تظن أنهم يدفعون سفينتهم لترتطم معنا وتكسر سفينتنا وتغرقها ؟

الربان : لست آمن مكرهم .

الرفيق : إن البحارة كذلك لا يثقون بهم .

الربان : ما هذه الزمجرة ؟ ماذا يقولون ؟

الرفيق : يقولون : إنهم لم ينضموا إلينا ليغرقوا .

الربان : إنهم تحت أمرى ، ويجب عليهم طاعتى .

الرفيق : نعم ، ولكنهم يخشون بأس الجنود ويخافون الموت .

الربان : إن لهم عقولا . ولو كنت فى ثياب بومبي لآثرت الدعة والراحة ، ولكنه ـ ومعه زوجه ـ يميل إلى المشاكسة . اللهم عجل بانتهاء هذه الرحلة . راقب البحارة وكن على استعداد تام .

الرفيق : سمعاً وطاعة ، يا رئيس البحارة .

رئيس البحارة : (من بعد) نعم يا سيدى .

الرفيق : خذ الأهبة واستعد للسير .

الرئيس : سأفعل يا سيدى . (يصفر)

الرفيق : (ذاهبا) هذا هو خادم بومبي يا سيدى (يخرج) .

الربان : فيلب !

فيلب : (داخلا) نعم .

الربان : ما الغرض من حضور بومپي إلى هنا ؟

فيلب : إنه حضر ليرى الملك .

الربان : هل جاء ليحتمي به ويعيش في ظله ؟

فيلب : لقد جاء ليجمع جيشا آخر من رجاله الذين سبقت لهم خدمة تحت علمه .

الربان : إن الملك الشاب فى حرب مع أخته ، وأظن أن مولاك لا يستطيع أن يجند رجلا واحداً .

فيلب : سيصلح مولاى بينهما ، ولا يسع الملك الشاب إلا أن يسمع قوله ويخضع لإشارته ، لأنه يكاد يعبده .

الربان : لقد بعث مولاك إليه برسالة ، فلم يعن بالرد عليها إلى الآن ، وصدرت الأوامر بألا نرسل زورقا إلى الشاطىء .

فيلب : أعلم أن ملك مصر يتطلع لمقابلة بومپي والاحتفاء به ، والمبالغة فى إكرامه ؛ إذ لولاه لمات أبوه موسيقياً فقيرا ؛ فى قلبه حسرة ، وفى فؤاده لوعة . هذا هو الملك الشاب قد أقبل مع حاشيته وخدمه فى الزورق الملكى ، ألا تراهم على ظهره ؟ ألا تسمع الموسيقى تطربهم ؟

(يدخل بومپي)

الربان : قد يكون الأمر كما ذكرت (يرى بومپي فيحييه ثم يذهب إلى جانب السفينة)

فيلب : مولاى ، أتعلم أى يوم هذا اليوم ؟

بومپي : أى يوم ؟

فيلب : هو يوم انتصارك ـ انتصارك فى آسيا منذ ثلاث عشرة سنة !

بومپي . هذا زمن بعيد ، ما كان أعظم ذلك اليوم !

فيلب : نعم يا مولاى ، فلست أنساه ما دمت حيا ، أحب أن أذكر ذلك اليوم دائما ، وأحتفل بعوده ، وقد اشتريت لك بعضا من التين ، وعسى أن يتقبله مولاى إجلالا لذكرى ذلك اليوم .

بومبي : (يأخذ التين) شكرا لك يافليب (للربان) : إن هذا الخادم الأمين يبالغ في إكرامي، ويضعني بين الجفون، ويخاف عليّ حتى هبوب الريح.

الربان : أرى ذلك منه.

فيلب : أضرع إلى الله أن يكون يومنا هذا كيوم انتصارك في آسيا!

(يخرج فيلب)

بومبي : أرجو ذلك، أيها الربان.

الربان : مولاي.

بومبي : هل حضر أحد على ظهر السفينه ليسأل عني؟

الربان . لا يا مولاي.

بومبي : أشكر لك.

الربان : أتأذن لي في الكلام يا مولاي؟

بومبي : نعم.

الربان : إن الأمير بعث إلينا ينهانا عن إرسال أي زورق إلى الشاطىء، وقد رأيت من الواجب على أن أبلغك ذلك يا مولاي.

بومبي : أشكر لك، هذا أسطول حسن!

الربان : إنهم يملئون السفن بالبحارة.

بومبي : ما سرعة هذه السفن؟

الربان : إذا كانت الرياح ساكنة، والبحر هادئا، والسفن جديدة، والمجدفون مهرة؛ أمكنها أن تقطع سبعة عشر ميلا؛ ولكنها في ريح كهذه لا تستطيع أن تسير سوى ثمانية. (سكوت) هذا هو وقت الرحيل يامولاي، إن كان لك فيه رغبة، أما إذا تأخرنا قليلا فقد يمكنهم أن يمنعونا من السفر.

بومبي : أشكر لك ياربان.

الربان : سأخبرك بما يحصل يا مولاي (يخرج)

(تدخل كورنيليا)

كورنيليا : هل أرسل الملك رسولا؟

بومبي : لا.

كورنيليا: هل بعث برسالة ؟
پومپي : لما يفعل .
كورنيليا: هل يعلم أنا هنا ؟
پومپي : نعم ، وسيحضر بنفسه .
كورنيليا: لم لم يأت إلى الآن ؟
پومپي : إن الشمس لم تزل فى خدر أمها .
كورنيليا: هل تظن أنا آمنون على أنفسنا فى أثناء انتظارنا ؟ هذا سكوت ينذر بسوء العاقبة ؛ ألا تنظر إلى هذه السفن ، وإلى تلك السقوف وقد غصت بالرجال ، والنساء ، والفتيان ، والفتيات ؟ وماذا نفعل إذا انقلب الملك ضدنا وألّب الناس علينا
پومپي : لا يستطيع أن يفعل ذلك ، فهدئى روعك وهونى على نفسك .

(يدخل تيوفانيس)

تيوفانيس: پومپي ، إنهم بعثوا إلينا يأمروننا ألا نرسل أى زورق إلى الشاطىء ، ويلوح لى أنهم يكيدون لنا ، ويمكرون بنا .
پومپي : لو كان الأمر كذلك لطلبوا إلينا النزول .
كورنيليا: ولم يمنعوننا من إرسال أى زورق إلى الشاطىء ، إذا كانوا من الأصدقاء المخلصين لنا ؟
پومپي : سيحضر الملك بنفسه ـ هذا إلى أنا قدمنا من قبرص وقد انتشر فيها الوباء ، وليس معنا ما يدل على براءتنا منه .
كورنيليا: إنهم يأمروننا !
تيوفانيس: وقد كان ينبغى أن يحضر إلينا القائد البحرى .
پومپي : هذه سفينة تجارية والأعلام الرومانية لا تخفق فوق رءوسنا .
كورنيليا: انظر إلى الربان ، فلقد استولى عليه القلق وساورته الهموم .
پومپي : من الضرورى للعالم أن أرى الملك بطليموس .

(يرمى الربان الحبل من يده ثم ينزل إلى أسفل السفينة) :

عجبا هل يكون مع بطليموس احد اسمه « كشيس ؟ »

كورنيليا : لقد مات لوسيس كشيس
تيوفانيس : أعرفا كونتس كشيس ولكنه فى أسبانيا
كورنيليا : أليس هناك أيضا نيس كشيس الذى كان ضابطا فى فرقة من جنود قيصر؟
بومپي : كنت أعتقد أنه قتل .
تيوفانس : سأستفهم عن ذلك .
بومپي : لا ، لا ، هذا كله مجرد وهم وحديث خرافة .
كورنيليا : ولكن لماذا تسأل؟
بومپي : لما كنت فى أفريقية منذ زمن بعيد ، عرضت لى امرأة عجوز ، وأمرتنى أن آخذ الحذر من كشيس ؛ ولكن ذلك لم يدر بخلدى حتى اليوم ، وقد مضى على قولها أربع وثلاثون سنة .

كانت تلك العجوز السوداء الساحرة الشوهاء ، تجلس فى حرارة الشمس المحرقة عند أطلال قرطاجة ، فلما رأتنى هممت بالنهوض ، واتكأت على عصاها ، وعالجت المشى حتى أخذت بزمام فرسى ، وقالت لى : « أيها الشاب المقدم فى قومك ، المفتخر بمنزلتك وحسبك ، احذر كشيس ، إياك وكشيس ، فإن الرمل يتساقط » .

كورنيليا : ولم تفكر فى ذلك الآن؟
بومپي : لأنى ذاهب إلى النصر كما كنت أفعل ذلك اليوم .

(يأتى الملاحون إلى مؤخر السفينة)

الرفيق : (يتبعهم) هلموا فسارعوا بالنزول من هذا المكان . وإذا كان لكم حاجة فابعثوا رجلا منكم .
الملاح ١ : معذرة وعفواً يامولاى ، فإنا نريد أن نتكلم .
الملاح ٢ : نعم لامناص لنا من الكلام .
الملاح ٣ : نريد أن نعرف لأى شىء جىء بنا إلى هنا .
الملاح ٤ : والمدة التى سنمكثها ، ولقد غُلب بومپي وليس له من صديق فى العالم

وأرواحنا عزيزة علينا ، وحياتنا لا ترخص عن حياته .

الرفيق : اذهبوا إلى أماكنكم ، أين رئيسكم ؟ أيها الرئيس ، أيها الرئيس ، (ضجة)

بومبي : ما الخبر ؟ (سكوت وهدوء)

الملاح ١ : معذرة وعفواً أيها المولى الشريف ، فإن لنا عند الربان حاجة ونود لو نراه .

بومبي : ما ظلامتهم ؟

الرفيق : أشياء وهمية لاقيمة لها يامولاى . . . اذهبوا إلى جانب السفينة .

بومبي : يظهر أنهم كثيرو العدد . . . ماذا حصل ؟

الرفيق : سينظر الربان فى شئونهم يامولاى . . . انتظروا .

(يذهب الرفيق ليبحث عن الربان)

بومبي : مم تشكون ؟

الملاح ١ : معذرة وعفواً يامولاى . . . جدير بنا أن ننتظر الربان .

بومبي : خبرونى ماذا جرى ؟

الملاح ١ : إنا نؤثر السكوت والانتظار يامولاى .

بومبي : مم تشكون ، أمن الطعام ، أم من الشراب ؟

الملاح ١ : لاهذا ولا ذاك ، ولكننا نخشى العاقبة .

بومبي : أى عاقبة ؟

الملاح ١ : ألا ترى إلى هذه السفن يامولاى ؟ إنهم يستعدون لأغراقنا !

بومبي : لماذا ؟

الملاح ١ : لأنك معنا على ظهر هذه السفينة ، وليس لهم عندك حاجة ، فبطليموس لا يرجو منك نفعا ولا يؤمل فيك خيرا ، وإن قيصر لرجل العالم ، أما أنت فكواحد منا ؛ ولقد آن لك أن تنزل عن شىء من تلك العظمة الموهومة بعد أن غلبك قيصر ، وذهبت الأرواح البريئة ضحية فى فى سبيلك من أربعين عاما ، وقد نصحت لك والنصح مر ، ولكن خير لك أن تذوق غضاضته وتشعر كما نشعر .

الملاح ٤ . هذا هو الكلام .

الملاح ٢ : أعدوا الحبال وتأهبوا للرحيل، وهيا بنا نحمله إلى قيصر و نبيعه له بيع السلعة.
پومپي : اذهبوا بعيدا . تقولون إن الجند سيأتون لإغراقنا؟ ولكنى أرى نحو خمسة آلاف منهم وخمسين سفينة ؛ وهذه قوة كبيره لإغراق سفينة واحدة بحارتها ضعيفو العزيمة خائرو القوى .
الملاح ٣ : انظر هنا ، هنا . . .
الملاح ١ : سنموت موت الكلاب !
الملاح ٤ : ما ذا نفعل وقد نزل القضاء وحم الموت ؟
پومپي : إذا كان لى بقية من السيطرة والقهر فلا بد أن أنجيكم ، وسأذهب إلى سفينة القائد البحرى ؛ فأعدوا زورقا وهيا بنا .
الملاح ٣ : أذاهب أنت لا محالة ؟
الملاح ١ : (مذعورا) انظر إليها !
الملاح ٤ : أنها تستعد للسير .
الملاح ٢ : ألا ترون مجاديفها فى الماء ؟
الملاح ١ : إنها آتية الينا ، فالسلام على الدنيا ومن فيها !

(يدخل الربان)

الربان : إن السفينة آتية يا مولاى ، فهل تسمح لى أن أقطع الحبال وأخلص هذه الأرواح الطيبة من الموت الزؤام ؟ إن ذلك يسير .
پومپي : إنها غير آتية . هبها آتية ؛ فلم تخافون ؟ أمن الموت تفرون ؟
الربان : حياة مرة للأرامل يا مولاى !
پومپي : (للبحارة) دعوا الحبال ، فالروح من أمر الله وسر من أسراره ؛ لا تروى بالماء ، ولا تقطع بالسيف ، ولا تحرق بالنار ، ولا تهدمها المعاول ، ولا يلحقها الفناء ، ولا تنال منها القوى المادية .
الملاح ٣ : أعرف أن جسمى قابل لذلك كله يا مولاى .
پومپي : يحق لكم أن تخافوا الموت ، فاذهبوا إلى أماكنكم . (يفكر) : إذا كان الموت منتهى ما للإنسان فلا معنى للحياة الآخرة : أيها الربان ، إن حالتنا يرثى لها .

(يذهب البحارة بسكون واحداً واحداً . بومبي ينظر إلى سطح المركب المتوسط . يقف الربان جانباً يراقب سفينة القائد . كورنيليا وتيوفانيس ينظر أحدهما إلى الآخر .)

كورنيليا : أتأتى إلينا سفينة الأمير البحرى ؟

تيوفانيس : إنها تتأهب للحضور .

كورنيليا : لتغرقنا ؟

تيوفانيس : فى استطاعتها ذلك .

كورنيليا : لا طاقة لى بحمل هذه الهموم !

(بومبي يرجع إليهم)

تيوفانيس : لقد كان ينبغى أن نذهب إلى أسطولنا ؛ إذ لا حول لنا ولا قوة الآن!

كورنيليا : ضاع الأمل وخاب المسعى !

بومبي : أؤكد لك أن مصر تعطف على وتخاص لى ؛ فقد حفظت استقلالها من يد كل معتد أثيم. وساعدت بطليموس الكبير فى الجلوس على العرش، ولا يزال الملك الشاب تحت رعايتى، تربطنى وإياه روابط المحبة الصادقة، وهؤلاء الجنود شيوخ حاربوا تحت قيادتى فى الجيش الأسيوى .

تيوفانيس : إن الملك الشاب مثقل الكاهل بالحروب الداخلية ، فكيف يستطيع أن يعلن الحرب على قيصر ؟

كورنيليا : ونحن الرومانيين نشكو له ونلتمس منه المعونة ونلجأ إليه ، وما كان أولى المصريين بأن يحنوا رءوسهم أمامنا. وتخضع أعلامهم لنا، وقد يمتنعون عن تحيتنا .

تيوفانيس: إذن نعلم موقفنا وما ننتظر

كورنيليا : ارفعوا الأعلام حتى نكون على علم تام بأمرهم .

بومبي : لم يئن الأوان بعد .

الربان : لقد جاء الوقت ، فهل يأمر مولاى برفع الأعلام ؟

بومبي : نعم ارفعوا أعلام القنصلية .

الربان : هذه سفينه تجارية لا غير ، وماذا نفعل إذا أبوا تحيتنا ؟

بومبي : تذهب إلى سفينة الأمير وتأمرها بالتحية .

الربان : لقد تم استعدادنا للمسير يامولاى . أيها الرفيق ، قف مكانك . وأنت يا غلام ، كن مستعدا . هل ربطت الأعلام أيها الضابط ؟

الضابط : (من بعيد) نعم .

الربان : (لبومبي) نحن على استعداد تام لرفع الأعلام، فإن شئت صلصلت الأجراس ثمانى مرات .

بومبي : حينما يأتى الأوان... (يمشى ببطء): لعل معك ياتيوفانيس أدوات الكتابة.

تيوفانيس : نعم.

بومبي : أطلب اليك كتابة بعض المذكرات (يخاطب زوجته) : أتذكرين يا حبيبتى ، تلك القطعة التى كنت تقرئينها يوم كنا فى « أليا » جالسين فى الحديقة وموضوعها على ما أذكر هو النفس ؟

كورنيليا : النفس الطاهرة الزكية ناجية ، وفى عيشة راضية مرضية .

بومبي : نعم . هذه هى . لقد كنت صبيا يومئذ ، وكان لى ولع شديد « بأليا » وما كان أسعدنا فى تلك الأيام !

كورنيليا : يا لها من سعادة ! جاءت الحمائم والتقطن الحب الذى تناثر ، وكان القمر ينظر إلينا وقد انبعثت أشعته فى أنحاء العالم فمزقت حجب الظلام .

بومبي : وكان الوادى ساكناً هادئاً لا يسمع فيه صوت ديار ، سوى جماعة البوم التى كانت تنعب فيه . أيها الربان ، دق الجرس ثمانى مرات .

(يفعل الربان ما أمر به ، وينتشر صدى الأجراس فى الميناء ، وتجاوبها أجراس السفن)

تيوفانيس : إن سفينة القائد البحرى ترفع علمها الآن .

كورنيليا : أترى ستحيينا ؟

تيوقانيس : هاهى ذى تفعل .

كورنيليا : لقد حيانا جميع السفن .

تيوفانيس : نحن فى مأمن !

پومپي : هذا لا شك فيه ، وسأقابل بالتجلة والإكرام ، فانصرفوا إلى أعمالكم.
الربان : عفوا يامولاى ، إنى أرى زورقا قادما نحونا .
پومپي : وماذا عسى أن يكون ؟
الربان : إنهم يجدفون على غير علم، ويسيرون على غير هدى، ويظهر لى أنهم من الجند.
پومپي : ذلك صحيح ، لأني أرى لمعان سيوفهم ووميض دروعهم .
تيوفانيس : سبعة من الجند .
الربان : هل أسمح لهم بالوقوف بجانبنا يا مولاى ؟
پومپي : انتظر قليلا ؟
كورنيليا : ما الذى حملهم على المجيء ؟
پومپي : هل أرسل الملك ذلك الزورق ؟
تيوفانيس: أيليق أن يرسل زورقا معدا للصيد كهذا لتركب فيه إلى الشاطيء ؟
كورنيليا : مستحيل أن تذهب فى ذلك الزورق .
تيوفانيس : پومپي ، إنى أرى علامات الخيانة والغدر بادية فى كل مكان !
كورنيليا : إن فى بقائنا هنا لخطراً فظيعاً .
پومپي : لا بد أن أخاطر بنفسى وأغرر بها وأدفعها فى مواضع التهلكة ، حتى لا يئول أمر العالم إلى ما كنا نخشاه من سوء المنقلب وشر العاقبة .
الربان : إنهم ينادوننا يا مولاى . هل للسيدة أن تتفضل بالنزول إلى السطح الآخر لحظة ؟ فقد يرمون بسهم على ظهر السفينة .
كورنيليا : إن الهواء هنا طلق عليل !
سبتيميس : (من بعيد) يحيي الامبراطور پومپي : مرحبا بالامبراطور پومپي .
الربان : لاثقة لى بهم يامولاى .
پومپي : لا تظهر ذلك ، ونظم رجالك حتى يؤدوا لهم التحية ، ليس هناك من خطر . هل معك كتابى الذى دبجت فيه صورة الخطاب الذى ألقيه أمام الملك بطليموس ؟
كورنيليا : هاهو ذا . (يصل الزورق)

پومپي : جماعة : تحية وسلاما

(يدخل سبتيميس وهو حاكم عسكرى رومانى مع أكلس المصرى وكلاهما فى ثياب العسكرية ، تؤدى لهما التحية المناسبة .)

پومپي : (متقدما نحوهما) هل أنتما موفدان من قبل الملك بطليموس ؟

(يحييه سبتيميس وينحنى أمامه أكلس .)

أكلس : أوفدنا إليك الملك بطليموس وهو يبعث إليك بالتحية الملكية .

پومپي : هل يود لو يرانى ؟

أكلس : يود أن يراك ويكون صديقاً مخلصاً لك .

پومپي : ألا أحضر السفينة بجانب الرصيف ؟

أكلس : يحول دون ذلك الوحل والرمال وقلة الماء ؛ فهل لك أن تتفضل بالركوب معنا فى زورقى ؟

پومپي : لا أستحسن منظره ، ولكن للضرورة أحكام !

أكلس : لا بأس به فى الجملة .

پومپي : (يخاطب سبتيميس) لقد سبقت لنا بك معرفة فيما أعتقد ، فقد كنا نحارب معا لصوص البحر منذ زمن بعيد ، أليس كذلك ؟ (سكوت) كنت رئيس الحرس ، فخضت فى الماء ، وذهبت منفرداً ، وأشعلت النار فى سفينة هناك ، فاحترقت ، وأعطيتك سيفى هذا الذى تتقلده الآن ، إنى أذكر ذلك ولا أنساه .

سبتيميس : (بصوت منخفض كأنما يكلم نفسه) إنك لا تفوقنى الآن منزلة !

أكلس : تعال معى فى زورقى الصغير حتى أوصلك إلى صديقك الملك . أيتها السيدة المحبوبة إن الملك يود لو يراه .

كورنيليا : يحق له .

پومپي : سأتبعك فانزل أولا فى الزورق .

(أكلس يحنى رأسه وينزل أولا ثم يقف على الجسر ناظرا خلفه)

أنا ذاهب الآن .

تيوفانيس: پومبي، لا تذهب.
كورنيليا: أيها الزوج العزيز، ما الذى دبروه وماذا يحصل لك؟
پومپي : ما يريد الله. إذا كانت هذه النهاية فمرحباً بها! لا خوف بعد اليوم ولا فزع. تيوفانيس، اذهب إلى كاتو، ومره أن يخضع لقيصر: لأن استمرار الحرب يستدعي سفك الدماء؛ على أنه لا يقدر أن يناوئه العداوة ويساجله الحرب. ابعث الأسطول، وألغ جميع الترتيبات السابقة. وأنت يا كورنيليا حثي والدك على الخضوع لقيصر. وباعدي بين أولادي وبين الحرب، وضعي لها حدا. ما أجمل الحياة فى نعيم الحرية! إن الحياة سر من الأسرار الخفية استأثر الله بعلم غايتها. تعالى أيتها الحبيبة! الشجاعة الشجاعة! هؤلاء مصريون.
ياربان: مر السفينة بالسير وانتظر أمرى. تيوفانيس، ابعث إلى ملوك آسيا ومرهم بالخضوع، ودعهم يتلمسون السلام بأى وسيلة.
إذا حان موتى فقد بلغتك وصيتى، وإذا كتب الله لى السلامة فأنت عليم بأوامرى.
أكلس : تعال معى إلى الزورق، إن الملك ينتظرك.
كورنيليا: زوجى زوجى!
پومپي : فى حراسة الله يا حبيبتى. أستودعك الله!
(يذهب نحو الجسر الموصل للزورق وتؤدى له التحية)
أكلس : (على الجسر) أعطنى يدك أساعدك على النزول.
پومپي : «إن الرجل الشجاع ليتقدم الى القضاء حرا مختارا، حتى لو كان يعلم أن القاضى سيضعه فى السلاسل والأغلال حينما يدخل». (ينزل ويسير به الزورق مشيعا بنظرات البحارة، حتى يصل إلى الشاطئ. وقد غص بالجنود)
كورنيليا: أراهم لا يكلمونه...
تيوفانيس: إنه يخطب فيهم!
كورنيليا: لقد خرجوا من حرارة الشمس واستظلوا بالجبل...

تيوفانيس : لهذا الجبل ظل ظليل .
كورنيليا : ما اسم هذا الجبل ؟
الربان : جبل كشيش ياسيدتى .
تيوفانيس : لقد أقبل الملك فى موكبه ، وأمامه الأعلام . ألا تسمعون الأبواق تحييه؟
كورنيليا : آه . . . السيوف . . . السيوف . . . طعنوه . . . طعنوه !
تيوفانيس : آه . . . واِرباه . . . واِرباه !
كورنيليا : آه قتلوه . لقد قتل . لقد قتل !
تيوفانيس: شياطين ! خونة ! ملاعين !
الربان : اقطعوا الحبال واستعدوا للرحيل ؛ فلقد أتى القوم أمراً جللا . إنى أخافهم ولا آمن مكرهم .

« يقف البحارة فى أمكنتهم استعداداً للسير وبينما هم كذلك تنبرى كورنيليا من بينهم وقد طار قلبها حزنا على زوجها ، وتنشد هذه الأبيات فتسيل الدموع ويعم الأسى ويشمل المصاب » :

طاف يبغى نجوة　　من هلاك فهلكْ
والمنايا رصـــد　　للفتى حيث سلك
أى شىء حسن　　لفتى لم يك لك ؟
كل شىء قاتل　　حين تلقى أجلك
إن أمرا فادحا　　عن جوابى شغلك
ليت قلبى ساعة　　صَبْرَه عنك مَلك !
ليت نفسى قدمت　　للمنـايا بدلك ... !

تنزل الستارة

محمد على مصطفى

حفـــلة توديع

الأستاذ مهدى علام

بمناسبة سفر الأستاذ مهدى علام المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفنى بها ، إلى جامعة منشستر بانجلترا ؛ لتدريس اللغة العربية وآدابها ، قد أقام له زملاؤه وأصدقاؤه وعارفو فضله حفلة توديع بنادى دار العلوم بشارع الملكة نازلى .

فنى الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الجمعة ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٣٦ بدأ المدعوون يفدون على النادى ، وكان الأعضاء يستقبلونهم مرحبين بهم ، وقد غصت بهم حجرة الاستقبال وحجرة رئيس النادى .

ثم انتظم عقدهم على موائد الشاى التى نسقت أجمل تنسيق ، وتجلى بينهم الإخاء ، وتبادلوا طرائف الحديث فى خلال تناول الشاى والمرطبات . ثم وقف الأستاذ نجيب حتاته مساعد المراقب للتعليم الأولى ورئيس جماعة دار العلوم ورئيس نادى دار العلوم وارتجل الكلمة الآتية :

كلمة الأستاذ نجيب حتاته

أشكركم على تفضلكم بتشريف نادينا للاحتفال بتوديع الأستاذ مهدى علام وهو من خيرة من أنجبت دار العلوم ومن أبنائها النابهين . وإنى أحدثكم عن صفات مهدى وكيف عرفته :

أول عهدى بمعرفته حين كان طالبا فى دار العلوم ، وكنت إذ ذاك ناظراً لمدرسة المنيرة الابتدائية . وكان مهدى يحضر إليها للتمرين فى دروس التربية العملية مع أستاذه مصطفى بك أمين أستاذ التربية فى دار العلوم والمفتش بوزارة المعارف الآن . وكنت أشارك أساتذة التربية فى نقد هذه الدروس . ولقد كان إعجابى بدروس الطالب مهدى عظيما ؛ فقد كانت مثالا للعناية ، ودليلا على البراعة ، وعنوانا للنبوغ والمقدرة . وكنت حين أتصدى لنقد دروسه لا يتسع أمامى مجال النقد ،

ولا أجد فى درسه مأخذا ، فلا ينطلق لسانى إلا بالإعجاب والثناء وذكر محاسن الدرس وبراعة المدرس .

لهذا كنت أتطلع إلى رؤية هذا الطالب النابه بين إخوانه فى دروس النقد . ولكن ما كان أشد عجبى ودهشتى حين كنت أتفقده بين إخوانه فلا أجده فأسأل عنه فيقال: إنه مفصول من المدرسة لاشتغاله بالسياسة واشتراكه فى الكفاح الوطنى . حقا لقد كنت أعجب أن تكون الوطنية الصادقة وإخلاص الطالب لبلاده سببا فى الحرمان من تلقى الدروس .

ولقد كان المربى الشهم (المرحوم) على عمر بك ناظر مدرسة دار العلوم من المعجبين بالطالب مهدى ، المقدرين لمواهبه ، المحبين له ؛ ولكنه لم يكن يود منه أن يشتغل بالسياسة ، أو أن يشترك فى الجهاد القومى . وقد دعاه مرة وهدده وطلب إليه أن يبحث له عن مدرسة أخرى غير دار العلوم ، فكان جواب مهدى أنه مستعد لذلك ، على شرط أن يبحث له سعادة الناظر عن هذه المدرسة الأخرى .

***

أتم مهدى دراسته فى دار العلوم وكان من المتفوقين ، فاختير للبعثة فى انجلترا . وقد صادف كثيرا من العقبات التى كانت تنشأ عن الأوامر المتعاقبة التى كان يتلقاها بتغيير اتجاهه فى الدراسة ، فكان كلما قطع شوطا فى مرحلة من مراحل دراسته ، صدرت إليه الأوامر بتغيير خطته ودراسة علوم أخرى ، على أن مهدى تغلب بعزمه القوى على كل هذا وفاز بالشهادات التى طلب إليه الحصول عليها .

وبعد أن عاد إلى مصر اشتغل بالتدريس فى المدارس الثانوية أشهرا قلائل ، ثم اختير مدرسا فى دار العلوم ، فكان أصغر الأساتذة سنا ، وقد أظهر من الكفاية والمقدرة ما أبقى له أثراً حميداً بين الأساتذة والطلاب .

ثم اختير للتفتيش فى وزارة المعارف ، فكان له من الهمة ودقة الملاحظة والتقارير النافعة الممتعة ، مادل على خبرة وحصافة ، ومقدرة وغزارة مادة ، ولما تولى الوزير الحصيف نجيب بك الهلالى وزارة المعارف اختار من أفذاذ رجالها أعضاء للمكتب الفنى الذى أنشأه ، وكان منهم الأستاذ مهدى الذى أبلى بلاء حسنا ، وبذل جهوداً تذكر له بالثناء ، وتدل على عزم وعبقرية .

ومن آيات الإعجاب بالأستاذ مهدى، ذلك الخطاب الذى كان حضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا وزير المعارف، قد كتبه فى أواخر الوزارة الماهرية إلى الاستاذ مهدى، وهو خطاب ينم عن فضل مهدى وغزارة علمه وحصافته وإخلاصه ونشاطه. وهذا هو الخطاب:

وزارة المعارف العمومية

مكتب الوزير

٩ مايو سنة ١٩٣٦

« عزيزى الأستاذ مهدى علام

« قبل مغادرتى الوزارة، أرى لزاماً على أن أعلن لك شكرى على ما قمت به أثناء العمل معى.

« وإنى لفخور بأن أرى الوقار فى شبابك، وإنكار الذات فى كفايتك، والتواضع فى عزة نفسك. أرجو الله أن يكثر من أمثالك، وأن يديم عليك نعمة أخلاقك وصحتك. وأن يهيء لك مستقبلا يليق بما يرجوه لك محبوك وعارفوك.

« واقبل تحياتى الأبوية. » الإمضاء (محمد على علوبة)

***

وإننى أرى فى هذا الخطاب تلخيصاً محكما لصفات الأستاذ مهدى، ولما طبع عليه من خلال كريمة ومآثر تستدعى الاعجاب.

والآن يُختار الأستاذ مهدى لتديس اللغة العربية وآدابها بجامعة منشستر بانجلترا، وسيكون إلى جانب ذلك خير سفير علمى لمصر. ويقيننا أنه سيقوم برسالته العلمية على أكمل الوجوه، وسيرفع من شأن مصر بهمته وحصافته، ونشاطه وعلمه الغزير.

ولا أنسى أن أذكر ما كان للأستاذ مهدى من الجد والإخلاص والآراء النافعة السديدة، فى تكوين النادى وإنشاء صحيفة دار العلوم، التى لا يزال أثره فيها تاريخاً لنهضة الشباب القوى وهمته العالية، فيما كان يقدمه من المقالات القيمة،

والموضوعات المفيدة . ولسنا فى حاجة أن نذكّر الأستاذ مهدى بما عليه من الواجب فى غربته للجماعة والصحيفة .

وإنى أرجو له أطيب التمنيات فى رحلته وإقامته .

* * *

كلمة الأستاذ عبد الحميد حسن

ثم وقف الأستاذ عبد الحميد حسن المفتش بوزارة المعارف ورحب بالحاضرين باسم نادى دار العلوم ومجلس إدارته . ثم قال :

إن الأستاذ مهدى علام شخصية فذة قوية ، وقد تجلى فيه كثير من الصفات الجليلة التى تؤثر فيمن يصحبهم ، وتسترعى أنظار من يخالطهم ، ومن يشاركونه فى الأعمال العلمية وغيرها . وقد ظهر هذا فى مراحل حياته فى أيام الدراسة وبعدها . وإننى لا أزال أذكره فى كثير من المواقف التى لا تزال ماثلة أمام نظرى :

فمن ذلك ماشهدته منه حين كان طالباً فى السنة الأخيرة من دار العلوم ، وكنت حينئذ مدرساً بها . ولم أكن قد عرفت اسمه ولا شخصه ، فقد كنت ألمح شاباً يمتلىء نشاطا وزعامة ، يقود إخوانه الطلبة ويؤثر فيهم بقوة بيانه ، ولباقته ومقدرته ، فكان أمره مطاعاً وقوله نافذاً . وكان مثلا عالياً من أمثلة الجد المتموج ، والنشاط المتوثب؛ وكنت ألمح من المدرسة وأساتذتها أن هذا الطالب محل إعجابهم وعطفهم، ولكنه إلى جانب ذلك كان منبع توجس وخوف من قوته ومقدرته ، وتفوقه بين إخوانه الطلبة ، فقد كانت المدرسة تخشى نفوذه الوطنى وزعامته بين إخوانه . وقد تجلى لى من كل هذا أن هذا الطالب لا بد أن يكون على جانب عظيم من المقدرة والوطنية الصريحة والشخصية القوية النفاذة .

* * *

سافر مهدى علام بعد ذلك إلى البعثة فى انجلترا ، ثم مرت الأيام وعاد فى إحدى الإجازات إلى مصر ، فالتقيت به فى دار العلوم . ولا يغيب عن ذاكرتى منظره وهو يرتدى معطف الجامعة ، يحمل على صدره شهادتها الخاصة . فتحدثت إليه ، فإذا به يتوقد ذكاء ، وتفيض نفسه نشاطا وغيرة وإخلاصاً ، ويتدفق لسانه

بالمعلومات الغزيرة الرصينة . فازددت وثوقاً بمواهبه ، واقتناعا بأنه سيكون من النابهين البارزين .

* * *

عاد الأستاذ مهدى من انجلترا ، بعد أن أحرز ما رسمت له وزارة المعارف من شهادات،فالتقيت به ، وامتدالحديث،وأفاض فى آماله فى الدرس والتحصيل ، وشرح لى بلهجة الأسف تلك العقبات التى كانت تلقى أمامه لمنعه من تحقيق ماتطمح إليه نفسه ، وما كان يريد أن يحرز من شهادات ودرجات ، وأطلعنى على خطابات كانت تدور فى هذا الصدد بينه وبين وزارة المعارف.وعلى ما كان يفضى به من رغبة فى أن يفتح أمامه المجال وتتاح له الفرص ، لتحقيق ما كان يعتزم أن يظفر به من شهادات .

* * *

اشتغل الأستاذ مهدى بالتدريس فى المدارس الثانوية فترة قصيرة ، ثم نقل إلى دار العلوم . ولم يكن لى الحظ فى زمالته فى التدريس فى دار العلوم . ولكنى شاركته فى كثير من المجامع العلمية ، فى لجان المناهج ووضع الأسئلة والامتحانات العملية ، وفى صحيفة دار العلوم، وشئون جماعة دار العلوم ونادى دار العلوم ، فوجدت منه الهمة العالية ، والمقدرة الممتازة ، والنشاط الشامل . وليس من اليسير على أن أفى مآثر الأستاذ مهدى حقها ، فهى كثيرة متشعبة ، وليس من الهين أيضا أن ألخصها ، فالإيجاز الوافى أصعب من الإسهاب .

ولهذا سأحاول الإلمام بذلك بطريقة غير مباشرة ، وذلك بالالتجاء إلى ما يرى علماء النفس أنه قوام الانسان وميزانه ، وهو الفكر والإرادة والوجدان :

أما من الجهة الفكرية ، فالأستاذ مهدى متوقد الذكاء ، سريع البديهة ، دقيق الخيال ، غزير المعلومات ، حصيف الرأى .

وأما إرادته فهى مثال القوة والإقدام ، لا تثنيها الصعاب متى انبرت للعمل ولا تقعد بها العوائق متى كان فى الإمكان اجتيازها .

وأما وجدانه وعواطفه فإنها تفيض رقة ووفاء وسماحة وإخلاصا لأصدقائه؛

ولكن هذا الوجدان الرقيق لا يتغلب على فكره ، ولا يسيطر على إرادته ، إذا دعاه داعي الحق ، فلا تلبث أن ترى العواطف قد توارت ، وظهر مهدى القوى الحجة ، الشديد البأس ، السديد الرأى .

من هذا ترى أن الأستاذ مهدى شخصية عاملة نبيلة كبيرة الخلال .

ولو أردنا أن نبحث عن العوامل التى كان لها الشأن الأول فى مواهب الأستاذ مهدى، ونفسه القوية ، ورجاحة عقله؛ ماوسعنا إلا أن نعترف بما لوالده المحترم من أثر عظيم فى ذلك ؛ فهو الذى رعاه فى حياته ونشأته ، وورثه صفات جليلة تدعو إلى الفخار .

وقد أسعدنى الحظ بحضور مجالس هذا الوالد المحترم والإصغاء إلى حديثه ؛ فكنت أجد الوقار الرائع، والإرادة القوية، والتجارب الغزيرة، والرأى الحصيف، والحديث الممتع ، والايمان الراسخ ، والقلب المملوء ثقة بالله ويقينا .

وإنى أهنىء الأستاذ مهدى بوالده ، وأهنىء الوالد بابنه، وأرجو أن يمتعهما الله وأفراد أسرتهما بالصحة والعافية ، وأتمنى للأستاذ مهدى رحلة سعيدة موفقة .

ولأتحدث عن المهمة التى سيذهب اليها الأستاذ مهدى ، وهى مهمة قام بها من قبل فريق من كرام الأساتذة أبناء دار العلوم ، ولكن الأستاذ مهدى لن تقف مهمته عند التدريس وإظهار مقدرته فيه ، فإنه سيقوم بواجب آخر أعلم أن همته ستتجه إليه ، وذلك هو النهوض بالثقافة الشرقية والإسلامية ؛ والعمل على أن يرفع من شأن مصر بماله من همة ومقدرة ، ولنا فى الاستاذ مهدى ثقة وطيدة تجعل يقيننا قويا فى تحقيق هذه الآمال .

* * *

وقبل أن أختم كلمتى أرسل التحيات الخالصة لصديق عزيز علينا ، وهو الأستاذ صالح هاشم عطية فى رحلته إلى أمريكا لتمثيل الجامعة الأزهرية . فأرجو له وللأستاذ مهدى السلامة والتوفيق .

* * *

كلمة الأستاذ زكى المهندس

ثم وقف الأستاذ زكى المهندس أستاذ التربية بدار العلوم فقال :

إن الاستاذ مهدى كان من خيرة طلاب دار العلوم وأنجبهم ، وأكثرهم حرصاً على التحصيل والدرس . وإنى أقف اليوم لأودعه وهو أستاذ ، وقد وقفت فيما مضى لتوديعه بعد أن تخرج فى دار العلوم وسافر إلى البعثة فى انجلترا ، وقفت إذ ذاك ، حين توديع مهدى الطالب ، موقف الناصح ، أحذره الانحراف عن الجادة ، وأسدى إليه من الإرشاد ما يكون له نبراسا فى تلك البلاد . أما الآن فلا أقف منه موقف النصح ، فإنه قد تزود من تجارب الحياة ، وعاش فى انجلترا وخبر عادات القوم ، وعجم الحياة ، ولكنى أقف منه موقف من يطلب منه النصيحة والإرشاد ؛ ولا عجب ، فإن مهدى على حداثة سنه ، يمتاز بالعقل الراجح والخلق الرصين .

وإن الفضل فى هذه الصفات الجليلة إنما يرجع إلى والده المحترم ، المملوء شهامة وقوة عزيمة ، وإلى نفسه الصافية ، وقلبه المطمئن ، ولقد زرته من أيام وتجاذبنا أطراف الحديث ، ووصلنا إلى موضوع سفر ابنه مهدى . وكنت أظن أن ذلك الوالد الكبير السن ، ستبدو عليه علامات التأثر لمفارقة ولده . ولكن ما كان أشد عجبى حين رأيت منه عزما دونه عزم الشباب ، وشاهدت استهانة بالصعاب تدل على نفس قوية ، ومما قاله لى : « إن الحياة كفاح ، وواجب الشباب أن يشق لنفسه طريقه فيها ، وواجبنا ـ نحن الشيوخ ـ أن نفسح لكم الطريق » فإلى هذا الوالد الوقور القوى النفس ، يرجع الفضل فى نشأة مهدى وكريم خلاله ، وإنا نقدم له إجلالنا ونرجو له صحة وعافية .

لقد كان الأستاذ مهدى من خير العاملين فى نادى دار العلوم ، وجماعة دار العلوم ، وصحيفتها ، وسيكون كذلك فى غربته ، وليس غريباً أن نسمع أن « مهدى » قد كون فى بلاد الانجليز جماعة لدار العلوم .

وإنى أختم كلمتى بالتمنيات الطيبة للأستاذ مهدى ، وأرجو له التوفيق والنجاح .

***

ثم وقف الأستاذ إبراهيم مأمون ، وهو من خيرة أبناء دار العلوم المخلصين ، المشتغلين بالتعليم الحر ، فألقى القصيدة الآتية :

قصيدة الأستاذ ابراهيم مأمون :

إلى الأستاذ الجليل مهدى علام

نَهضتْ تُحَيِّ فيكَ عزْمَ شبَابِهَا ... وتُرِيكَ ما ادّخرَتْهُ من إعجَابِها
آذنْتَهَا ـ عفّ اللسانِ ـ بصَيْحَةٍ ... جَمعتْ شتَاتَ الحقِّ بين رحابِها
ومَضيْتَ فى كنَفِ الثقافةِ نابِهاً ... فَخْمَ الأدلّةِ ناصِراً ومُحابِها
فى السابقين الأولين . ولم تزَلْ ... بيْنَ الشَّبيبةِ مُستهلَّ كتابِها
أَلبْتَ أجْفانَ النُّهوض على الكرَى ... وجَعلْتَ سيفَ اللهِ من أهدابِها
وطَلعتَ مُزْدَحِمِ المُنَى جيّاشَها ... حَتى كأنك لا تشاء مُشابِها !
تحْتَالُ للنُّوَبِ الحوافلِ بالدُّجى ... وترُدُّ غارتَها على أعقابِها
وتَبيتُ تُنْذِرُ حاصباتِ عدوِّها ... بتحفّزٍ بادى القُوى وَثّابِها

٭٭٭

مَهْدِىُّ : وَالَيْتَ الجماعةَ . لم تهِنْ ... يوماً . ولم تَخْرُجْ على أسبابِها
وَوَفَيْتَ للنادى الأشمِّ . ولَمْ تزَلْ ... تُمْلِى سياستَهُ على أترابِها !
وثقتْ بك الدّارُ المنيعةُ عالِماً ... ثِقةَ السَّمواتِ العُلاَ بشهابِها
إن أنسَ لا أنسَ الجهودَ روائعاً ... بين النجومِ الزُّهْرِ من طلاَّبِها
«والدارُ» حَسْبُ الفاخرين «نجيبُها» ... رَجُلُ القيادةِ فى أعفّ ثيابِها
هى مسجدُ اللغةِ الجريئةِ ، تلتقى ... لهجاتُ « يَعْرُبَ » فى ذرا محرابِها
درَجَ الكفاحُ السَّمْحُ فى أكنافِها ... وبَدا الدفاعُ الحرُّ بين شعابِها

لجّتْ عليها الحادثاتُ ، فما وهَتْ ، وسَلِ الليالىَ يَسْتَجِرنَ بِبابِها
إن فاتَها مَجْلى « عكاظَ » ، فإنها بعثتْ جلالَ « الضادِ » فى أعْرابِها

* * *

مَهْدىُ ، مَهدىّ الشبابِ إلى العلا ، هذا وَداعُ « الدار » من أقطابِها :
الذاكرين الفضلَ فى أصحابِه ؛ والباعثين الدارَ فى أصحابِها
الذاخرين « نجيبَها » لحقوقها الْمُمْطِرِينَ رِياضَها بسَحَابِها
الْمُشْرِفِين على المروءة والحجى . المرسلين بكل صُقْعٍ نابِها
العاصفينَ بكل ما عَصَفَ الهوى المرهبين الحرْبَ فى إرهابِها
نَسَبُ الزمانِ بشيبهم وشبابهمْ ما زالَ فى الأنساب فصلَ خِطابِها

* * *

مَهدىُ ، دَارُكَ بالأسودِ منيعةٌ أرأيتَ أُسْداً تستخف بغابِها ؟!
قل للجماعة وهى تاجُ زمانِها ، والمكرماتُ تسير خَلْفَ رِكابِها :
الحقُ أسفرَ فارْقبوا إشراقَه ، والله أولى مِصْرَ حُسْنَ ثوابِها .

* * *

ياعاهل « الدارِ » (١) الطّهورِ أساسُها ، أنتَ « النجيبُ » وأنتَ حَرْبُ صِعابِها
أحيَيْتَ « ناديَها » ، وصُنْتَ ذِمَارَها ، وحفظْتَ حُرْمَتَها ، ليوم حِسابِها .
لكَ حمْدُ بانيها ، وشكْرُ « عَليِّها » (٢) وثناء شِيخَتِها ، وحُبُّ شبابِها

(١) عاهل الدار : رئيس الجماعة والنادى .
(٢) بانيها : المغفور له الخديو اسماعيل .
«عليها» : « « على مبارك باشا .

* * *

كلمة الأستاذ الشيخ عبد العزيز طاحون

ثم وقف الأستاذ عبد العزيز طاحون المدرس فى الازهر ، ومن تلاميذ الأستاذ مهدى علام فى قسم التخصص،فتلا كلمةدبجها قلمه وأملاها عليه إخلاصه لأستاذه مهدى ، ووفاؤه لأساتذة دار العلوم . وأثنى على دار العلوم ورجالها ، وامتدح جهودهم فى رفعة اللغة وعزتهـا والنهوض بآدابها . وقال : إن الأستاذ مهدى علام ليس ملكا لدار العلوم وحدها ، بل هو ملك مصر والشرق ، ولقد كان الأزهريون جميعا يودون الاشتراك فى الاحتفال بتوديعه ، ولـكنهم الآن فى عطلتهم الصيفية ؛ وإنى أنوب عنهم فى تأدية هذا الواجب ؛ فالأستاذ مهدى علام من خيرة أبناء دار العلوم الذين لهم الأثر العظيم فى أقسام التخصص بالأزهر ، وإنا نرجو له رحلة سعيدة موفقة إن شاء الله .

* * *

كلمة المحتفل به

ثم وقف الأستاذ مهدى بطلاقة لسانه ، وقوة بيانه ، وثبات جنانه ، فأثنى على الحاضرين وشـكر الخطباء على ما فاهوا به ، وعلى النصيب الوافر من الثناء الذى خصوا به والده . ثم قال : إنه فى مثل هـذه الأيام من العام الماضى قام الأستاذ صالح هاشم عطية فى الاحتفال بتـكريمه قبيل سفره بصحبة جلالة الملك فاروق فقال : إنه ليس لديه ما يقوله . ومع ذلك فقدفاه بالرصين من المقال . أما أنا فى موقفى هذا فلا أدعى قلة المعانى ، ولـكن مع هذا أعترف بالعجز عن الإفصاح عما يجول بقلبى نحوكم ، فأكتفى بذلك وأشـكركم أجزل الشـكر .

* * *

وبعد ذلك أقبل الحاضرون على الأستاد مهدى يحيونه ويهنئونه ، ثم جلس ومعه أصدقاؤه وأفراد أسرته فى سمر وسرور ؟

شكر

بعد ما أبحر الأستاذ مهدى علام ، أرسل الخطاب الآتى من الباخرة التى أقلته ، إلى الأستاذ نجيب حتاته رئيس جماعة دار العلوم ؛ يشكر للجماعة ما قامت به ، فنثبته هنا ، ليصل الشكر إلى أهله :

ظهر الباخرة ستراثيرد

الخميس ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٦

حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل نجيب بك حتاته

رئيس جماعة دار العلوم

بلسان عاجز عن الشكر ، وبيان أثقله الجميل ، أتقدم إلى جماعة دار العلوم في شخصكم الكريم بأعمق ما تكنه الجوانح من الاعتراف بالجميل على ما قامت به الجماعة نحوى من مظاهر الرعاية الكريمة ، التى دلت بها على أنها تكرم أصغر جندى فى معسكرها .

إلى العـــلا دار العـــلوم !

المخلص

مهدى علام

المكتبة العربية :

قصص الأنبياء

كتاب الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار

مدرس التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين
وناظر مدرسة المرحوم عثمان ماهر باشا

ما كان أحوج المسلمين وأدباء العربية والمشتغلين بدارسة تاريخ الأديان، إلى هذا الكتاب من زمان ؛ فإن قصص الأنبياء على ماتتصل بأدب القرآن وتفسير القرآن وعقائد المسلمين ، ليس فى العربيـة كلها كتاب يجمعها ويحققها تحقيق العلم ، ويجلّيها على صورتها الحقة التى تهيء للباحث مادة بحثه ، وللمسلم سبيل اليقين . . .

وقد كان فى العربية كتب تناولت هذا الموضوع على مذهب من مذاهب القصة ، فيها الفن وفيها التسلية ، ولكن ينقصها العلم والتدقيق والنظر ؛ فخرج أكثرها من باب العلم والدين والتاريخ ، إلى باب الرواية وزيفها واحتيالها لتجويد الفن بمسخ التاريخ ، فآلت هذه الكتب إلى أن تكون مما يُقرأ للتسلية وإزجاء الفراغ ، ثم آلت من بعدُ إلى أن تكون فساداً فى الدين ، وضلالا عن الحقيقة ، وفتنة فى قلوب المؤمنين . وما ظنك بكتاب يتناول سيرة الأنبياء (صلوات الله عليهم) لاتكون مادة بحثه إلا من حديث موضوع ، أو أثر مقطوع ، أو خبر مما يتناقله القُصَّاص عن أخبار بنى إسرائيل . . . ؟

وكانت هذه الكتب على مابها من خلط وجهل وضلال ، هى مبلغَ العلم عند الناس بقصص الأنبياء ، حتى تهيأ لنا كتاب الأستاذ الجليل الشيخ النجار ؛ بطريقته الفذة ، وأسلوبه الممتع ، وتحقيقه الدقيق .

وهو كتاب لم يؤلفه مؤلفهُ — أولَ مابدأ — للعامة والجمهور ، ولكنها سلسلة دروس كان يلقيها على طلابه فى كليات الأزهر ، فلما تمّ تمامُها أخرجها

للناس كتاباً يقرءونه ، على طراز ابتدعه ، ونظام لم يُسبق إليه ولا يتأتى لغيره ؛ ومَنْ مِن علماء هذا الباب له إحاطة الأستاذ النجار ، وسعة علمه ، ودراسته العميقة ، ودأبه على الاطلاع ، وسابق نظره فى التوراة والإنجيل والقرآن وتاريخ الأديان ؛ وهى مصادر البحث الأولى فى هذا الموضوع الجليل ؟

***

جرى أستاذنا فى كتابه على مذهب علمى دقيق ، جعل دعامته الأولى من القرآن الكريم وما ثبت من الأحاديث ، ثم ماهداه إليه رأيه بالبحث والدرس والاستقصاء ،مستعينا على ذلك بما صح عنده من آيات الإنجيل والتوراة ، والأخبار المروية التى لا تعارض القرآن ولا تنافى العقل ولا يتطرق اليها توهُّمُ التغيير فيها والتبديل ؛ على أنه لم يقطع برأى فيما خالف السلف إلا مستنداً إلى برهانه ، أو يتركه على احتماله لمن شاء أن يتدبر ، أمانة للعلم ووفاء بحقه .

ثم يتبع كل قصة أوحادثة أو رأى بما يعززه من الآيات ، مستفيضاً حيناً فى الربط والاستدلال على ما يقتضى الموضوع ، وموجزاً حيناً آخر ليترك للقارىء أن يرى ما يشاء .

وعلى هذا النظام سار فى الكتاب من مبدئه إلى نهايته ، فما يشعر قارئه ـ إذ يقرأ ـ أن رأياً يُملَى عليه أو فرضاً يُفْرَض ، بل أحسب كل قارىء سيدعى ـ فيما بينه وبين نفسه ـ أنه شريك المؤلف فى كتابه . وصاحب الرأى معه ؛ لنصوع الحجة ووضوح البحث ودقة الاستدلال .

على أن الكتاب ـ وهذا موضوعه وهذه طريقته ـ ليس له جفاف كتب العلم بحيث لا تخلص له النفس إلا مكرهة ، فإنك لتقرؤه فتجدلذة وأنسا وسلوة ، إلى ما تجد من فائدة وعلم ؛ فثمة مباحث لغوية ، وفوائد فى الأخلاق وعلم النفس ، ومباحث علم الطبيعة ، ومناقشات فى تفسير الكتاب الكريم ، واستخدام لأحدث الآراء العلمية فى تفسير معضلات القرآن ، وغير ذلك مما لم يسبق لعالم من العلماء أو مفسر من المفسرين .

ولو أنى أردت أن أسوق الأمثلة ، أو أقتبس المعجِب من الكتاب ، ما وسعتنى الصفحات ؛ ومِن أين لى هنا صفحاتٌ بعددِ صفحات كتاب الأستاذ النجار ؟

ولكنه على ما أفاد بكتابه ، وعلى ما بذل من جهد فى تحقيق مسائله والاستدلال لرأيه ، وعلى ما جاء بالجديد من الآراء التى خفى مغزاها عن علماء هذه الأمة ثلاثة عشر قرنا من الزمان ـ ولكن الأستاذ النجار على ذلك كله لم يسلم من الغمز والطعن والتجريح ، ولم يسلم كتابه من نقد بعض ذوى الفكر ، الذين تقرأ لهم أحيانا فتقول : « ما أعجب أن يتجاهل العلماء... ! » فإن أردت أن تعلم بعض هذا النقد ، فاعلم أن ذلك كله فى دعواهم : « لأن فى الكتاب آراءً لم يعثروا له فيها على سلف . . . ! » [1] وحَسْبُكَ من نقد هذا أساسه ومذهبه ، ولا مذهب للناقدين سواه . . . ؟

س . ع

(١) هذا بنصه من تقرير (لجنة العلماء) فى نقد كتاب الأستاذ النجار ، وهو ـ كان ـ كل سبيلها فى النقد ، وآخر ما بلغت إليه . . . !

سلسلة القصص المدرسية

عمـــل

سعيد العريان أمين دويدار محمود زهران

خريجي دار العلوم

بقلم المتولى قاسم

المدرس بمدرسة محمد على الملكية للبنات

إن أول ما يساعد الطفل على كسب الملكة اللغوية ، والمرانة الإنشائية ، كثرة ما يقرأ من صحيح العبارات ، وجميل الأساليب ، مسوقا إلى ذلك بدافع من ذات نفسه يزجيه ، راغباً فيه بشوق من شعوره وعواطفه يناديه ؛ وإنما يحفزه إلى القراءة والإكباب عليها ما يستهوى لبه ، ويستغرق فكره ، ويسيطر على نفسه ، ويتسوع خياله ، بأسلوب سهل جذاب ، يتراءى له قريباً من متناوله ، خفيفاً على إدراكه ، غنياً عن الشرح والتفسير ، حتى ليكاد يحاكيه أول وهلة بدون عناء .

ولقد شعر المربون الغيُر على اللغة العربية ، الراغبون فى تحبيبها إلى الأطفال، بشديد الحاجة إلى نوع من الأدب ، يجارى الطفل فى تصوره وشعوره ، فيلهيه ويسليه ، ويغذّيه بالحقائق فى تضاعيف اللهو واللعب ، ويبث فيه مكارم الأخلاق ، والرغبة فى عمل الخير والبعد عن الشر ، بلطف ولباقة ، حتى يخف عليه تقبله ، ويرجى منه حسن الانتفاع ؛ وكم لاحظ المصلحون انصراف جمهرة الشبان عن القراءة النافعة ، إذ لم يجدوا فى بدء نشأتهم ما يحببها إليهم ، ويقربها إلى نفوسهم ؛ ورجَوْا أن يجود الزمان بمن يحقق أمانيهم ، ويُهدى إلى الطفل ما ينفعه فى هذه السبيل ، وكان أن ظهرت محاولات لتحقيق هذه الرغبة ، وأخرج بعض الأدباء قصصا لصغار التلاميذ ، فكانت ناجحة موفقة إلى حد ما ، ولهؤلاء الأدباء الشكر على ما بذلوا من مجهود صادق ، وإن لم تكن جميع قصصهم

محققة لكل ما يرجو المربون المخلصون ، فمنها البعيد عن جو التلميذ ، النائى عن متناول خياله ؛ ومنها المرتفع الأسلوب المرهق لإدراكه .

وما زالت الحاجة داعية إلى أدب طفليّ أقرب إلى حياة الأطفال ، وأدنى إلى مداركهم ، وأوفى بما تطلبه التربية الحديثة ، حتى ظهرت هذه «القصص المدرسية» فإذا هى تحقيق الخيال ، وتأويل الأحلام . ولا غرو فإن مؤلفيها ، بحكم عملهم واتصالهم بالتلاميذ ، ودراستهم نفوس الأطفال عمليا ، سهل عليهم أن يكشفوا ما خفى على غيرهم ، ولمسوا موطن العلة ، ومكمن الداء ؛ فترفقوا باللغة وبالتلميذ ، وجروْا معه فى ميادين جده وهزله ، وآخوْه فى مسارح عمله ولهوه ، وكانوا معه فى تأليفهم آباء مرشدين ، ولداتٍ ملاعبين ، فى آن معا ، وهدَوْه بهذه القصص إلى أشرف المقاصد ، وأنبل الأغراض ، فى أسلوب اللهو واللعب ، الذى يخف على نفسه تقبّله ، وأرشدوه إلى المثل الأعلى ، وكأنهم يداعبونه ويدللونه ، ولم يخرجوا عن جو تفكيره ، فأرضت قصصهم خياله وجميع نواحى نفسه ، فأقبل عليها إقبال الظِماء على نمير الماء ، ينهل من موردها العذب الصافى ، ويتحبب ريًّا من سلسبيلها السائغ الشافى ، وفى بعض ذلك بشير بحسن الانتفاع .

وما أنس من شىء لا أنس الإشارة إلى بعض ما تمتاز به هذه القصص ، مما يحقق الأمل المنشود :

(١) فلقد نرى فيها ألفاظاً كثيرة ، عليها مسحة العامية ، ولهذا يتحرج التلاميذ من استعمالها فى كتابتهم ، لشعورهم بوجوب التفرقة بين لغتى الكتابة والكلام ، ويعجزون عما يغنى عنها من الفصيح لقلة محصولهم ، فاستعملها المؤلفون للتقريب بين لغتى التلميذ ، فجعلوا القنطرة بين اللغتين قصيرة بقدر المستطاع ؛ ومثل هذا يكفى التلميذ الحيرة ، فيستعمل ما يرد فى القصص من هذا القبيل غير وجل ولا هياب .

(٢) ولكنهم (إلى جانب هذا) لم يهملوا تزويد التلميذ بمواد لغوية جديدة ، تزيد فى معجمه ، وتكون له غذاء حسناً سائغا ، وترقى بلغته رويداً رويدا ، ولذا حلّوْا قصصهم بكثير من الدرر الغوالى ، التى قد يصعب على الطفل فهمها منفردة

وتناولها مطلقة ، فنسجوا حولها (فى براعة وإتقان) عبارات سَداها الرقة والعذوبة ، ولحمتها الوضوح والبيان ؛ فكانت كفيلة بإيضاح الصعب ، وتذليله بغير كبير حاجة إلى شرح ؛ وخير الكلام ما أعان بعضه على فهم بعض .

(٣) هذا إلى عظيم عنايتهم بتهذيب الجمل ، ونفى حواشيها ، حتى جاءت جملا قصيرة ، يستوعبها نَفَس التلميذ فى راحة وهدوء ، ذات نبر جميل وروح طفلىّ ، فيبقى أثرها فى النفس مدى طويلا ، متتابعة فى خفة روح وسلاسة ، فيخف على الطفل حفظ كثير منها . وقصارى القول أنهم قدموا للطفل من اللغة الغذاء الصالح ، الذى يسيغه ، فيهضمه ويمثّله ، فينتفع به فى محاوراته و كتاباته .

ولكن لا يفوتنى أن أهمس بكلمة إلى المؤلفين ، عسى أن يتقبلوها بقبول حسن ؛ فنى القصص مآخذ يسيرة ، يسهل تداركها عليهم ، ولا يصح صدورها منهم ؛ و بين يدى القصة الخامسة (الزعيم الصغير) . وفيها ص ٣ (تواعدا على نزهة خلوية) وهى نسبة إلى الخلاء ممدوداً لا مقصورا ، ومهما تكثر تغييرات النسب لا تتسع لهذا التغيير . وفى ص ٥ (يصيح بين وقت وآخر .) والصواب : وقتا بعد آخر ـ أو : حيناً بعد حين . وفى ص ١٣ (على حينَ ـ يتمتعون) بفتح نون حين ؛ والجر هنا لازم : لأنه أجود ، ولأنه لا يخالف معلومات الطفل الصغير . وجمع زبون على زبائن ص ٣٦ غير سائغ ؛ ومثله (ولعله خطأ مطبعى) تأنيث الضمير فى قولهم ، ص ٤٢ (كنا غريبين فى هذا البلد ، فأصبح أهلها جميعا أهلنا) وكذلك (لم نعد نراه) ص ٥٦ [١] ، هذا ، ويحسن أن تكون الصور بالألوان ، فذلك أرضى لنفس التلميذ ، وأوضح إبانة للغرض ، وأبعث للرغبة فى القراءة والاطلاع .

وبعد ، فإننا نهنىء أطفال الجيل الحاضر ، بهذا الأدب الطفلى ، الذى كان عزيز المنال على آبائهم ، وأصبح الآن عليهم سهلا يسيرا ؛ ونقدم إلى الآباء هذه الهدايا الطريفة التى خففت عنهم العبء فى تثقيف أولادهم وتسليتهم ؛ وفى اعتقادى

---

(١) راجع (عثرات الأقلام) ص ٩٤ من العدد الثالث من السنة الثانية .

أن هـذه القصص تملك على الطفل مشاعره ، وتستولى على نفسه ، وتنسيه طعامه وشرابه ، حتى يروى منها غلته ، ويصدر عنها وقد رسخ فى نفسه خيالها ومعانيها وأسلوبها ، وخيرما يحقق الفائدة ما أقبلتَ عليه ، مشغوفا به مشوقا إليه ؛ وقد قرأت صدرا من إحدى هذه القصص على بعض التلاميذ ، فأقبلوا صامتين كأنّ على رءوسهم الطير ، مشوقين إلى الاستماع ، كأنما يسمعون لحنا موسيقيا مؤثرا ، مستزيدين من القراءة ، طالبين المضىّ فيها إلى النهاية ؛ ولهذا أرى أن القصص المدرسية ، تقوم بما يتطلبه منهج الدراسة على أكمل وجه ، وتسد ذلك الفراغ الذى طالما رجا المربون من يسدّه ؛ وأرى أنها توشك أن تبث فى نفوس التلاميذ الروح القصصى ، وتمهد لهم سبيل هـذا الفن ، وتثقفهم به ثقافة عملية ؛ وأكاد ألمح من وراء الغيب أن سيظهر أثرها إن شاء الله ؛ فنرجو للمؤلفين دوام التوفيق ، ونطلب إليهم المزيد . حياهم الله ، وجزاهم عن اللغة والتلاميذ خير الجزاء . . .

تذييـــل

كنا على أن تنشر هـذه الكلمة ، فى العدد الثالث من السنة الثانية ، بيد أنها وصلت متأخرة ، فلم يتسع المجال لنشرها ؛ ثم شغل المتنبى العددين التاليين ؛ وفى هذه الفترة من الزمن أخرج المؤلفون القصتين (السادسة والسابعة) على غرار القصص السالفة من السهولة واللين ، وبث النصائح الثمينة فى تضاعيف الكلام ، بالأسلوب القصصى الطفلى الجذاب .

فالقصة السادسة (الطيور البيضاء) تشير إلى فائدة القراءة ، وما فيها من لذة ومتاع للقارئين ولو كانوا من أبناء الملوك ؛ إذ تحكى عن الأمراء (ص ٤) فتقول : « فإذا تعبوا من اللعب ذهبوا إلى مكتبتهم فى القصر ، فيجدون مئات من الكتب النافعة ، والقصص اللذيذة ، فيقرءون وينبسطون » .

ثم تضرب أحسن المثل للصبر الجميل ، واتخاذ الحيلة للتخلص من الأزمات ، وذلك بالجد وبذل أقصى الوسع فى العمل مع التفاؤل وحسن الرجاء ؛ فإن الأميرة (أنيسة) تقبل نصيحة العجوز ، وتنسج لإخوتها ـ وهم عشرة أمراء ـ

سب حلل بيدها ، لكى يتخلصوا من السحر ، ويعودوا أمراء بعد إذ حولهم سحر الملكة (زوجة أبيهم) طيورا بيضا ؛ وهى فى أثناء النسج الذى استغرق الأيام والليالى ذوات العدد ، تصوم عن الكلام على رغم الظروف التى تخرج كل صامت إلى الكلام بل إلى إطلاق اللسان ؛ فالكلاب تخرج عليها وتنبحها ، فلا تصرخ ولا تستغيث ؛ والملك يكلمها ويحييها ويسألها ويؤانسها ، فتعتصم بالصمت ولا ترد عليه جوابا . وفى نهاية القصة عبرة حسنة وعظة جميلة ، إذ أبانت عاقبة المكر السيء الذى لا يحيق إلا بأهله ، فنزل العقاب العادل الصارم بالملكة الساحرة والوزير الخائن ، فماتا شر ميتة ؛ ونجا الأمراء والملكة (أنيسة) من سحر الملكة وكيد الوزير .

وفى القصة السابعة (ساقية العفاريت) نفى المؤلفون من ذهن الأطفال تلك الفكرة الفائلة ، التى يزعم مروجوها الذين يلقون الرعب فى نفوس الصغار : أن العفاريت تظهر للناس في هيئة الأناسى والحيوان ، فتؤذى الخلق وتزعجهم ، وتعيث فى الأرض فسادا ؛ وقد سلكوا إلى ذلك سبيلا للإقناع هادئة سهلة ، وناقشوا الأطفال بلغتهم وأفكارهم ، فغرسوا فى قلوبهم الشجاعة ، ونزعوا منها الرعب والانزعاج .

ولقد أحسنت وزارة المعارف صنعا بتقرير هذه القصص كتبا إضافية للمطالعة بالمدارس الابتدائية .

وبهذه المناسبة أعيدَ طبع القصص كلها . وتدارك المؤلفون بعض مافيها من مآخذ قلما يسلم منها مؤلف .

ولقد صح ما توقعناه فى آخر كلمتنا لهذه القصص ، من أنها تكسب قارئها مرانة فى كتابة القصة . فقد ظهر فعلا أثرها ، إذ أقبل التلاميذ على محاكاتها ، وترسموا للمؤلفين ، بنتاج قرائحهم الصغيرة ، مسترشدين بهذا النبراس الواضح ، مستمدين من ذلك الغذاء الصالح ، الذى يقدم إليهم حينا بعد حين ؛ وإن كثيراً من المدرسين وضعوا قصصا جديدة ، لها حظ من الطرافة والتجويد .

ولا شك أن هؤلاء وأولئك مدينون لأصحاب «القصص المدرسية» بهذه النهضة المباركة التى نرجو أن تؤتى ثمارها الطيبة .

وأخيرا — وهذه الكلمة بين أيدى الطابعين — ظهرت القصة الثامنة (مخبر الجريدة) وهى قصة من طراز بارع ليس عجيبا من مؤلفيها .

وبطلها شاب يتيم فقير صبور ، شهم كريم النفس ، شجاع القلب ، استطاع أن يتزوج بنت عمه (الباشا) ويرث عمه جميع مايملك من مال وعقار ، وسعد بهذا الزواج الذى لم يكن يتوقعه ولو فى عالم الأحلام ؛ وذلك لشجاعته وشهامته وعزة نفسه ، فنال إعجاب عمه ، فنزل له عما يملك ، وزوجه ابنته زواجاً سعيداً.

وحوادثها مسلسلة تسلسلا هادئا يسهّل على الطفل الصغير تصوّرها تصوّراً دقيقاً ، يمهد له سبيل المحاكاة فى وضع القصص الملائمة لعقله ومبلغ ثقافته.

وقد نشر المؤلفون بين دفتى هذه القصة قصتين من عمل التلاميذ ، ووعدوا بنشر باقى القصص التى وردتهم ، تشجيعا للتلاميذ على المضى فى هذه السبيل ؛ فنشكر لهم صنيعهم جزيل الشكر ، ونرجو أن يشد الله أزرهم ، فيخرجوا قصصاً أخرى للمدارس الثانوية على هذا المنوال ؟

المتولى قاسم

صدى أحلامى

ديوان الآنسة جميلة العلايلى

هى شاعرة، ولكنها غير من تعرف من الشواعر فى العربية؛ فما تعرف العربية فى أكثر شواعرها إلا صورة مقلدة من شعرائها؛ تقرأ القصيدة من شعر إحداهن، فلو أنك لم تقرأ اسم صاحبتها إلى جانبها، ما عرفتَ أهى لشاعرة أم شاعر؛ ولكنك هنا واجد شعرا تستعلن فيه الروح النسائية فى ظرفها ورقتها، وفى إحساسها العميق بالألم، وفى سرعة استجابتها لنوازع النفس؛ ثم فى صبرها واستسلامها لما تنالها به أحداث الزمان...

وإذا كانت الشاعرة جميلة العلايلى قد خرجت بهذا عن التقاليد التى نعرفها لمن ينظمن الشعر فى العربية، فإنها إلى ذلك قد خرجت أيضا عن تقاليد الفتاة المصرية التى تحملها على ضبط النفس والكتمان والحفاظ على السر... فهنا ـ فى هذا الديوان ـ روح فتاة سافرة القلب، سافرة المعانى؛ تقرؤها فما يغيب عنك شىء مما يضطرم فى نفس صاحبته من شتى الانفعالات ومختلف النوازع التى تلازم فتاة فى مقتبل الشباب ونضارة الصبا، قضت الحياة بأن يكون ميدانها فى غير الدار.. وتقرؤه فكأنك ترى صاحبته، وتعرف من خبرها، وتستمع إلى نجوى نفسها فى خلوة السَّحَر أو فى جَلْوَة الفن... وتلك لعمرى فاتحة لباب جديد فى الشعر العربى، أحسب كثيرا من أدبائنا يطرب له ويتفاءل، ولكنى أعرف أن أكثرنا يتسخّطه ولا يرضاه؛ فما سحر المرأة الا أن تظلَّ سراً مغلقاً على الرجل، وما تُبين المرأة أفصح البيان فى لغة الحب إذ تتحدث، ولكن حين تصمت!

***

والشاعرة «جميلة» ـ فيما يبدو من ديوانها ـ تعيش من الشعور بالحرمان فى دنيا أليمة ساعدتْ شاعريتها، ولكنها جعلت أحسن شعرها هو أحفلَه بمعانى الألم؛ فأنت تقرأ «صدى أحلامها» فلا تسمع إلا صدى آلامها؛ وما تألم أكثر ألمها إلا لأنها تحس بوحدتها فى هذا الكون وحدةَ فكر أو وحدةَ عاطفة، فما شعرها إلا أمانى لم تجد لها حقيقة فى دنيا الناس، أو آلام مبرِّحة مما تعانيه من الشعور بالخيبة فى محاولة إدراك المثل الأعلى بين الناس...!

هى عاشقة لا تجد سبيلا إلى الوصال ، لأنها تعشق « المستحيل » ، ولكنها تجد فى هـذا العشق العجيب لذتها وسعادتها ، إلى جانب ما تجد فيه من الحسرة والألم : تعيش مع معشوقها حينا فى دنيا الخيال ، فتسعد وتبتسم وتملأ الجو حولها طربا وبهجة ؛ وتراه حينا بعيدا بعيدا لا تبلغه النفس ولا تتعلقه المنى ، فتحزن وتنغمّ وتملأ الكون دموعا وزفرات ؛ وهى ترى صورة هذا المعشوق الجميل فى فى ثلاثة : الحب ، والفن ، والسلام .

أما الحب . . . واأسفاه . . . . أين منها الحب ؟

دموعى ترفُّ وقلـبى يذوب ألا مِن أليفٍ يداوى السقم ؟
ألا من أليف ربيب الوفاء صديق حبيب ينير الظلم ؟
ويبعث فىّ شعاع المـنى ويرفع عـنى قيود الألم !
ويحنو علىّ كطير وديعٍ يغـنى وينشد حلو النغم
ويوحى إلىّ بسر الخـلود ويلهم قلبى الشجىّ النِّعم . . »

وأما السلام . . . أين السلام على الأرض . . . ؟

« قضت الحياة بأن أجىء إلى الورى وقضى الورى ألا أقرَّ بدار . . . ! »

* * *

« شفّنى الحزنُ الذى غشى الورى وأحال الكونَ عندى كالقتامْ
كلما جُلتُ بعينى كى أرى . . . لم أجد إلا ظلاما فى ظلام ! »

وأما الفن ، فهذا عزاؤها ، وهذا صداه ، صدى أحلامها وآلامها . . . أتراها بلغتْ به كل العزاء . . . ؟

* * *

أما بعد فهذا فن جديد من شعر المرأة ، لا يمنعنا ما فيه من روح التمرد على طبيعة الأنوثة المتمنّعة المستحية ، أن نصرح عن الإعجاب بالكثير منه ، ولا يمنعنا هذا الإعجاب أن ننصح للشاعرة الأديبة أن تحاول التزوّد من اللغة بأكثر مما تزوّدت ؛ فإن ثروتها اللغوية — فيما يبدو من ديوانها — لا تهيّئها لأن تكون شاعرة كالتى تريد ، فلعلها إن بلغت حظًّا أكبر من اللغة ، أن تبلغ حظا أعلى فى الشعر . . .

ولنا رجاء آخر إلى الآنسة جميلة العلايلى . هو أن تحاول وضع النقاب على بعض المعانى السافرة فى شعرها ، فلعلها بالنقاب تكون أكثر فتنة . . . !

س . ع

فهرس العدد الثانى

من السنة الثالثة